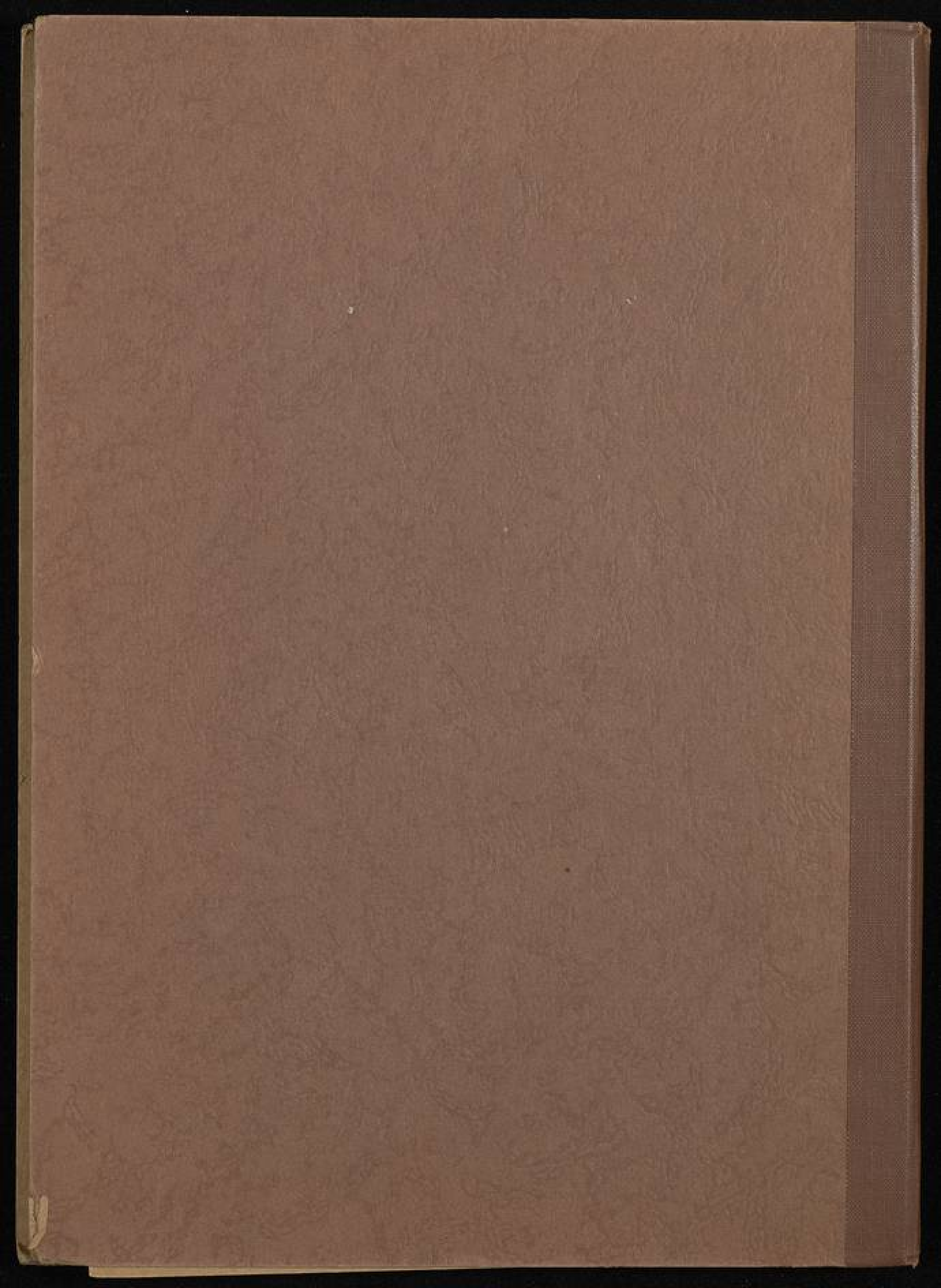
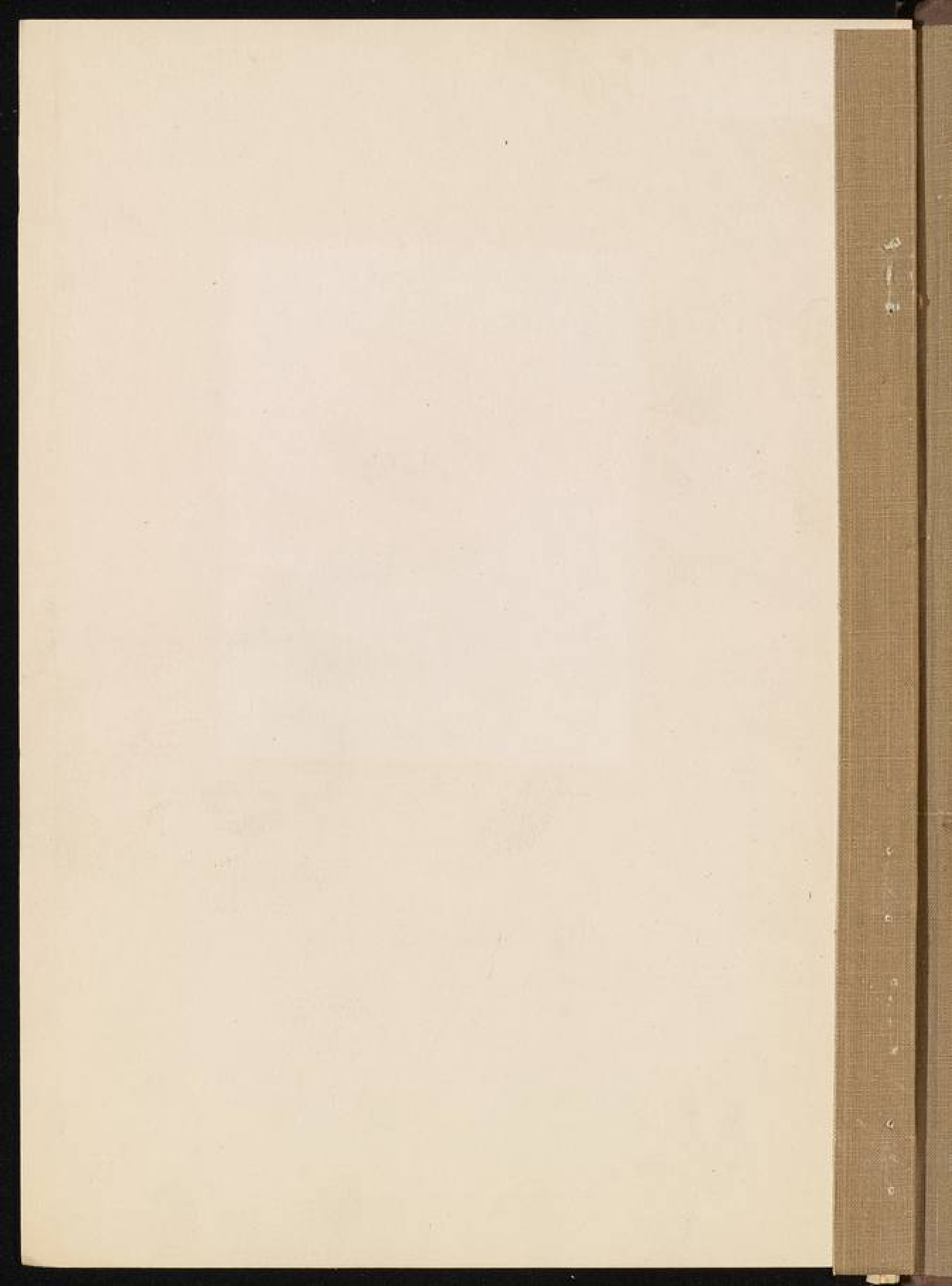
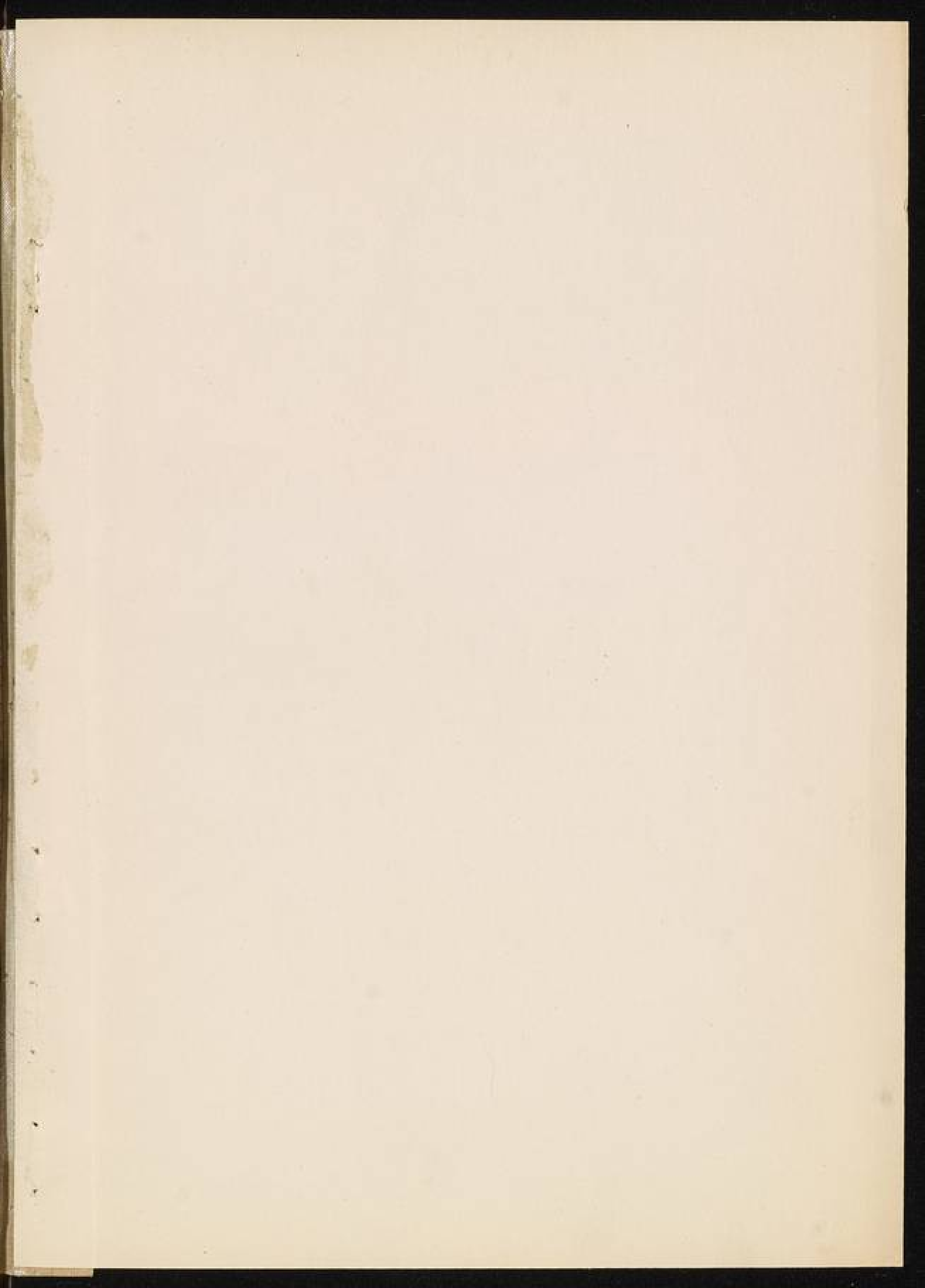



Gaylord
PAMPHLET BINDER
Syracuse, N. Y.
Stockton, Calif.




SIGILLVM · COLLEGII · COLVMBIAE · NOVI · EBORACI





٦٥

# البلاغة العالية

## علم المعانى

تأليف


عبد المتعال الصعيدى

المدرس بكلية اللغة العربية

من كليات الجامع الازهر

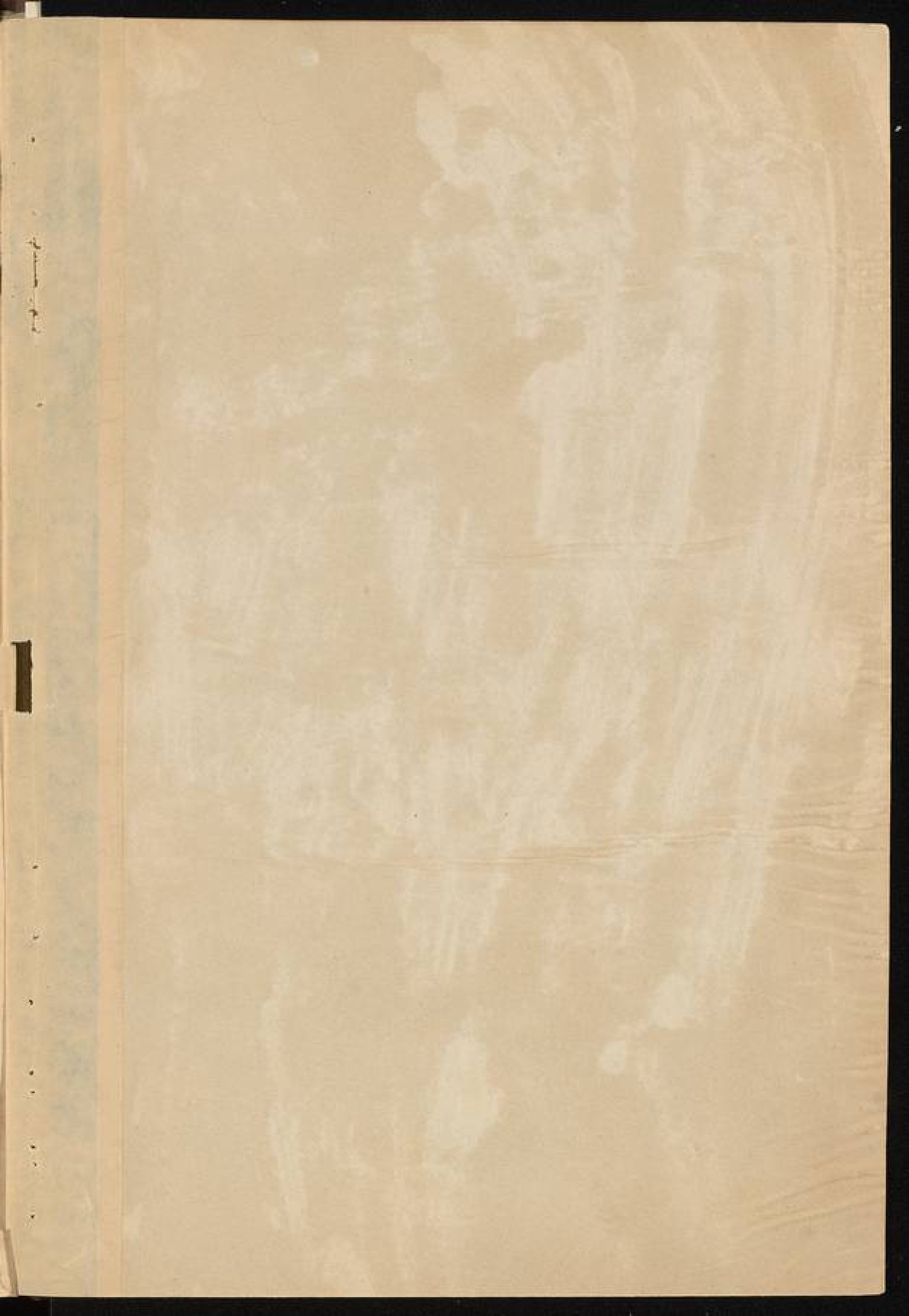




القاهرة

١٣٥٥

المطبعة السلفية



# أبواب علم المعانى







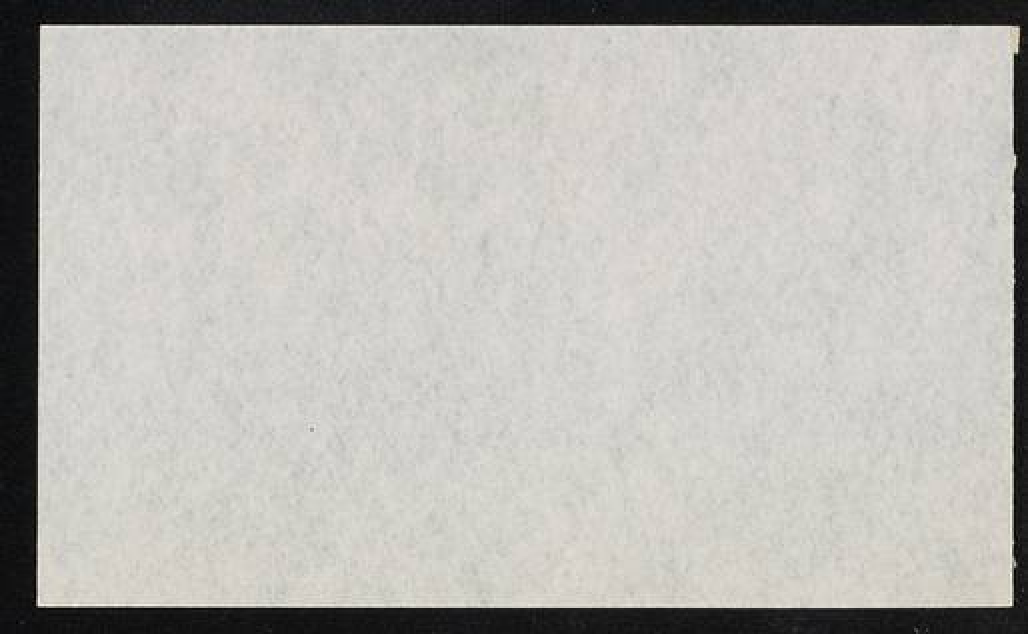
## أحوال الطرفين والمتعلقات ... ... ... ٦٠

الباقى من صفحة الخطأ والصواب — ١٢٨ —

| الصفحة | السطر | الخطأ | الصواب |
| --- | --- | --- | --- |
| ١١٦ | ٣ | ومقاماتها | ومقاماتها |
| ١١٧ | ١ | لاعتبار | الاعتباو |
| ١٢١ | ٢ | ذ كرى | ذكر |
| ١٢٧ | ٧ | ألم أقل | ألم أقل لكم |

al-balāghat

not in B



# البلاغة العالية

## علم المعانى

تأليف

عبد المتعال الصعيدى

المدرس بكلية اللغة العربية

من كليات الجامع الأزهر

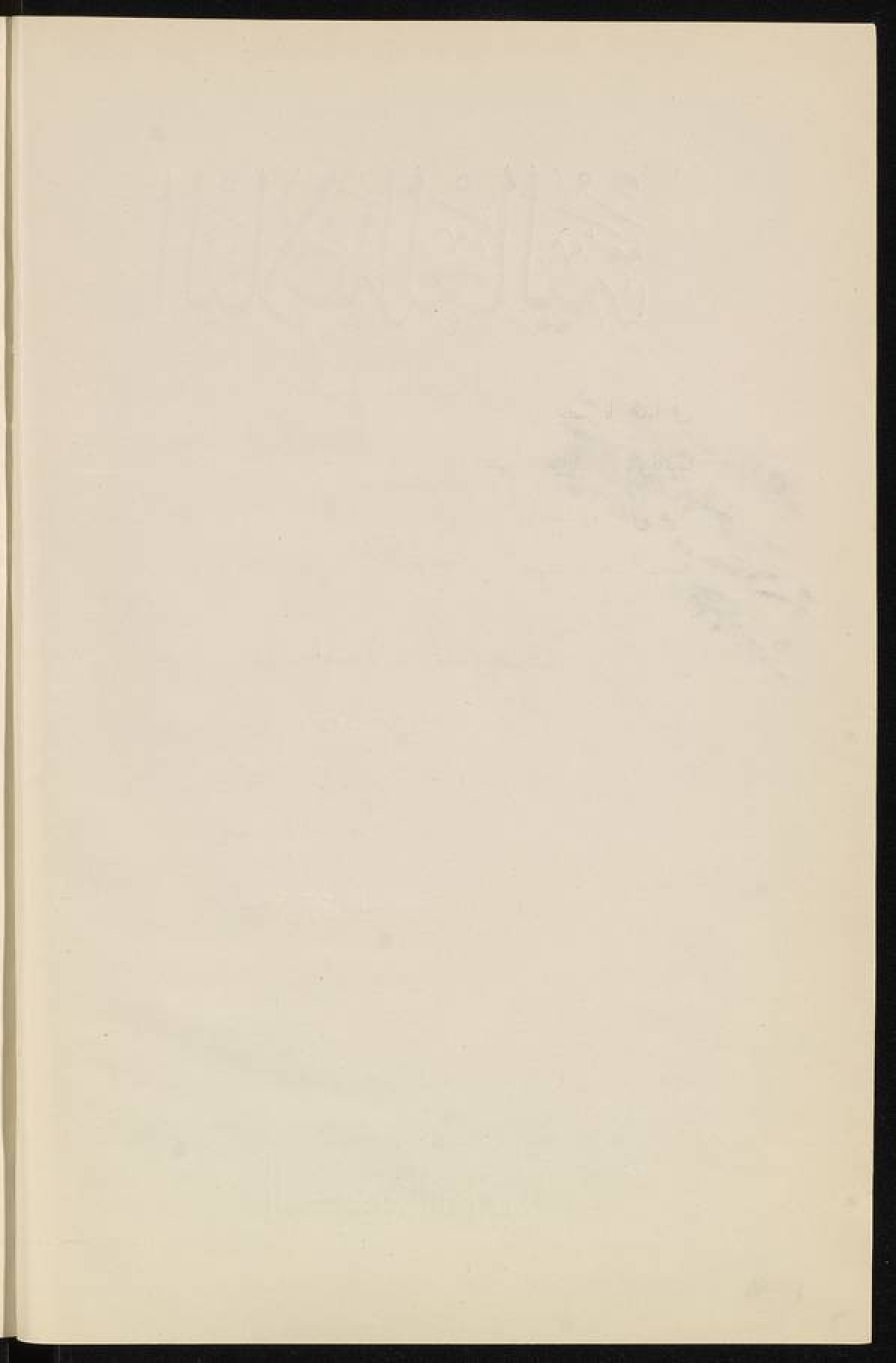
---



القاهرة

١٣٥٥

المطبعة السلفية



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً يليق بكماله ، ويبلغ عظيم مَنّه وإفضاله . والصلاة والسلام على نبيه المبعوث بجوامع الكلم ، محمد سيد العرب والعجم ، وأفصح من نطق بالضاد فيما غبر وفيما بقى من الزمن

وبعد ، فإن الكلام فى الفصاحة والبلاغة قد مرّ إلى عصرنا هذا فى أربعة أطوار : أولها يبتدىء من عهد الجاحظ إلى عهد عبد القاهر ، وثانيها يبتدىء من عهد عبد القاهر إلى عهد السكاكى ، وثالثها يبتدىء من عهد السكاكى الى عهد نهضتنا الحاضرة ، ورابعها يبتدىء بعهد هذه النهضة الى وقتنا هذا

ويمتاز الطور الأول بأن الكلام فيه على الفصاحة والبلاغة كان أقرب الى الأدب منه الى البحث الفلسفى كما يظهر هذا بالنظر فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ، وفى أشباههما من كتب هذا العهد

ويمتاز الطور الثانى بأخذه فى ذلك بشىء من البحث الفلسفى ، يسرف فيه أحياناً ، ويقتصد فيه أحياناً أخرى ، ويحاول مع هذا ألا يُفَرِّط فى الصبغة الأدبية للطور الأول ، وأفضل مثال لهذا الطور كتابا عبد القاهر ( دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة )

ويمتاز الطور الثالث بطغيان البحث الفلسفى فيه على الصبغة الأدبية التى امتاز بها الطور الأول ، وإن كمل الكلام فيه على الفصاحة والبلاغة

من الناحية العلمية ، وصار فيه إلى هذه العلوم الثلاثة المعروفة

ويمتاز الطور الرابع بمحاولة القضاء على البحث الفلسفى فى هذه العلوم ، والأخذ بها فى طريقة العلوم الرياضية بدل هذه الطريقة الفلسفية ، مسائل موجزة ، وتمرينات شعرية ونثرية ، وأجوبة عنها مقرونة بها ، أو مطلوب من المتعلم معرفتها

وهذه الطريقة الرياضية هى التى تغزو الآن سائر العلوم كما كانت تغزوها الطريقة الفلسفية قبلها ، ولهذا سببه من طغيان العلوم الرياضية على غيرها من العلوم فى عصرنا ، بعد أن كانت الفلسفة صاحبة الطغيان على غيرها فى العصور السابقة

والذى أراه أن كل طائفة من العلوم لها طريقتها التى تناسبها فى التعليم ، فإذا طغت عليها طريقة غيرها لم تحدث إلا فساداً فيها ، فطغيان الطريقة الرياضية فى علوم البلاغة غير محمود الأثر فيها ، كما أن طغيان الطريقة الفلسفية فيها غير محمود الأثر أيضاً

ولهذا كله وجدت الحاجة شديدة الى وضع كتابى هذا « البلاغة العالية » فى علوم البلاغة الثلاثة ، ليسير بها فى الطريقة اللائقة بها ، ويأخذ من غيرها بمقدار لا يطغى عليها ، ويكمل تمييز مسائل هذه العلوم بعضها عن بعض ، ويزيح عنها هذه المسائل النحوية التى حشرت بينها من عهد السكاكى ومن أتى بعده ، وهذه مهمة لا أجد فيما أعلم أحداً حاولها قبلى ، والله أسأل أن يجعله عملا نافعاً ، وسبيلا راشداً ؟

١٧ صفر سنة ١٣٥٥

# البلاغة والفصاحة

## ( ١ ) وجودهما فى سائر اللغات :

من العلماء من يذهب إلى أن البلاغة والفصاحة مما استأثرت به العربية ولا يوجد فى غيرها من اللغات ، قال الجاحظ رحمه الله : [١] ونحن أبقاك الله إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز ، فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صدق من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب ، والسبك والنحت الذى لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم فى البيان أن يقول فى مثل ذلك إلا فى اليسير ، والنبذ القليل . ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التى فى أيدى الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة ، إذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون وأبى عبيد الله وعبد الحميد لا يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ، ويصنعوا مثل تلك السير

مذهب الجاحظ

ثم قال فى موضع آخر [٢] : إن البديع أمر خاص بالعرب مقصور عليهم ، وإن سواهم من شعوب الأرض كان يجهله جهلا مطلقا

والانصاف فى ذلك ما ذهب إليه أبو هلال العسكرى من وجود البلاغة والفصاحة فى كل اللغات ، وفى ذلك يقول [٣] : العجم والعرب فى البلاغة سواء ، فمن تعلم البلاغة بلغة من اللغات ثم انتقل الى لغة أخرى أمكنه فيها من صنعة الكلام ما أمكنه فى الأولى ، وكان عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها من اللسان الفارسى فحوّلها إلى اللسان العربى ، ويدلك على هذا أيضاً أن تراجم خطب الفرس ورسائلهم هى على نمط خطب العرب ورسائلها ، وللفرس أمثال مثل

مذهب أبى هلال

---

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ١٣ طبعة مطبعة الفتوح الادبية بمصر
(٢) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢١٢ (٣) ديوان المعاني ج٢ ص ٨٩ طبعة مكتبة القدسى

أمثال العرب معنى وصنعة ، وربما كان اللفظ الفارسي في بعضها أفصح من اللفظ العربي ، من ذلك قول العرب « وَلَدُكَ من دَمَّى عَقِبَيك [١] » وقول الفرس « هرك نزادنرود » واللفظ الفارسي في هذا أفصح من اللفظ العربي وأحسن ، وقولهم « كشنند ميدْ » مثل قول العربي « من يسمع يَخَلْ [٢] » سواء في المعنى ، والفارسي أقل حروفاً ــ إلى أن قال ــ وليس قصدنا لهذا المعنى فنطيل فيه ، ولكن لإيراد أمثلة في البلاغة تكون مادة لصانع الكلام . فمن ذلك قول أبرويز « إذا نزل الحول استكشف النقص » يحث على طلب النباهة والتماس جلائل الأمور ، وقال بهرام جور « الحاكم ميزان الله في الأرض » فوافق قول الله تعالى « والسماء رفعها ووضع الميزان » يعني العدل في الحكم ، ونحوه قول علي رضي الله عنه : « السفر ميزان القوم » وقول الآخر « العروض ميزان الشعر » وقال أنوشروان لابنه هرمز : لايكن عندك لعمل البر غاية في الكثرة ، ولا لعمل الإثم غاية في القلة ، ووافق هذا من العربي قول الأفوه الأودي :

والخيرُ تزدادُ منه ما لقيتَ به ... والشرُّ يكفيك منه قلَّما زادُ

وقال أبرويز يوماً لجنده : لا يشحذ امرؤ منكم سيفه حتى يشحذ عقله ، وأظن المتنبي ألمَّ بهذا فقال :

الرأيُ قبل شجاعة الشجعان ... هو أوَّلٌ وهي المحلُّ الثاني

## (٢) أقوال القدماء في معناهما :

ذكر القدماء أقوالا كثيرة في معنى البلاغة والفصاحة ، ولكنهم كانوا كما قال بهاء الدين السبكي [٣] لايقصدون بها حقيقة الحد ولا الرسم ، وإنما كانوا

---

(١) كانت امرأة الطفيل بن مالك ولدت له عقيل بن الطفيل فتبنته كبشة فضربه عقيل على أمه فضربته فجاءتها كبشة وقالت ابني ابني فأجابتها أمه بهذا المثل (٢) معناه أن من يسمع أخبار الناس ومعايبهم يقع في نفسه عليهم المكروه (٣) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ص ١٣٠ جـ ١ من شروح التلخيص « المطبعة الاميرية »

يقصدون ذكر أوصاف للبلاغة ، والتنويه ببعض ما يستحق التنويه من نواحيها ،
ومن تلك الأقوال ما حكى عن أرسطو أنه قيل له ما البلاغة ؟ فقال : حسن
الاستعارة ، ومنها قول أكثم بن صيفى فى خطبة له : البلاغة الايجاز ، ومنها قول
بعض الهند : جماع البلاغة البصر بالحجة ، والمعرفة بمواقع الفرصة . ومن البصر
بالحجة أن يدع الافصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان طريق الافصاح وعراً ،
وذلك مثل ما حكى أن عبيد الله بن زياد بن ظبيان دخل على عبد الملك بن مروان
وأراد أن يقعد معه على سريره ، فقال له عبد الملك : ما بال العرب تزعم أنك
لا تشبه أباك ؟ فقال عبيد الله : والله لأنا أشبه بأبى من الليل بالليل ، والغراب
بالغراب ، ولكن إن شئت خبرتك عمن لا يشبه أباه . فقال عبد الملك من ذاك ؟
قال : من لم تنضجه الأرحام ، ولم يولد لتمام ، ولم يشبه الأخوال والأعوام . فقال
عبد الملك ومن ذاك ؟ قال سويد بن منجوف . فقال عبد الملك أكذاك أنت
ياسويد ؟ قال نعم . فلما خرجا قال عبيد الله لسويد : وريت بك زنادى ، والله
ما يسرنى بحلك عنى حُمرُ النَّعَم ، فقال سويد : وأنا والله ما يسرنى أنك نقصته
حرفا وأن لى سود النعم . وإنما كان عرض بعبد الملك وكان ولد لسبعة أشهر .
ومن البصر بالحجة ما روى أن شاعراً أقام بباب معن بن زائدة حولا لا يصل إليه
فكتب إليه رقعة ودفعها اليه :

إذا كان الجوادُ له حجابٌ     فما فضلُ الجوادِ على البخيلِ

فكتب معن فيها :

إذا كان الجوادُ قليلَ مالٍ     ولم يُعْذَرِ تعلَّلَ بالحجاب

فانصرف الرجل يائساً ، ثم حمل اليه معن عشرة آلاف درهم

ومن أقوالهم فى البلاغة ما حكى عن ابن المقفع أو غيره أنها تصوير الحق فى
صورة الباطل ، وتصوير الباطل فى صورة الحق . ومن تصوير الحق فى صورة
الباطل قول عبد الملك بن صالح فى المشورة : ما استشرت أحدا إلا تكبر على

أرسطو

أكثم

بعض الهند

وتصاغرت له ، ودخلته العزة ودخلتنى الذلة ، فعليك بالاستبداد فإن صاحبه جليل فى العيون ، مهيب فى الصدور ، وإذا افتقرت إلى العقول حقرتك العيون ، فتضعضع شأنك ، ورجفت بك أركانك ، واستحقرك الصغير ، واستخف بك الكبير ، وما عز سلطان لم يغنه عقله عن عقول وزرائه ، وآراء نصحائه .

ومن تصوير الباطل فى صورة الحق قول الحارث بن حلزة :

عِيشِى بِجَدٍّ (١) لا يَضِرْ كِ النَّوْكُ (٢) ما لاقيتِ جَدَّا
والعيش خير فى ظلا ل النوك ممن عاش كَدَّا (٣)

ذم البلاغة الساحرة

وقد يذم هذا النحو من البلاغة ، كما روى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : وفد إلى رسول الله ﷺ الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم ، فقال الزبرقان : يارسول الله أنا سيد تميم والمطاع فيهم ، والمجاب منهم ، آخذ لهم بحقهم وأمنعهم من الظلم ، وهذا يعلم ذلك - يعنى عمرا - فقال عمرو : أجل يارسول الله إنه لمانع لحوزته ، مطاع فى عشيرته ، شديد العارضة فيهم ، فقال الزبرقان : أما إنه والله قد علم أكثر مما قال ، ولكنه حسدنى شرفى ، فقال عمرو : أما لئن قال ما قال فوالله ما علمته إلا ضيق العَطَن (٤) زَمِن (٥) المروءة ، أحمق الأب ، لئيم الخال حديث الغنى . فرأى الكراهة فى وجه رسول الله ﷺ لما اختلف قوله ، فقال يارسول الله رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أقبح ماعلمت ، وما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الثانية . فقال رسول الله ﷺ : إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر لحكمة . وأكثر الناس يحملون هذا من النبى ﷺ على المدح لهذا البيان ، ومنهم من يجعله ذماً له ، وقال ابن رشيق (٦) : والذى أراه أن هذا النوع من البيان غير معيب ، لأنه لم يجعل الباطل حقاً على الحقيقة ، ولا الحق باطلا ، وإنما

---

(١) الجد الحظ (٢) النوك الجهل (٣) الكد شدة العمل
(٤) العطن المناخ حول المورد (٥) واهن
(٦) العمدة فى صناعة الشعر ونقده جـ ١ ص ١٦٥ « مطبعة هندية »

وصف محاسن كل شيء مرة ، ثم يصف مساويه مرة أخرى

وأقوال القدماء كثيرة فى البلاغة ، وأما أقوالهم فى الفصاحة فنادرة ، وكان أكثرهم لا يفرق بينهما فى المعنى ، وقد نقل عن أفلاطون أن الفصاحة لا تكون إلا لموجود ، والبلاغة تكون لموجود ومفروض ، وقال العاص بن عدى : الشجاعة قلب ركين ، والفصاحة لسان رزين ، واللسان فى كلامه اللفظ ، والرزين الذى فيه فخامة وجزالة ، وقال بعضهم : الفصاحة تمام آلة البيان ، فهى مقصورة على اللفظ أيضا ، لأن الآلة وهى اللسان تتعلق باللفظ دون المعنى

أفلاطون

العاص بن عدى

## (٣) تعريفهما :

كان القدماء يذهبون فى بيان معنى كل من البلاغة والفصاحة هذه المذاهب إلى أن جاء عهد تدوين العلوم التى تبحث فى أمرهما ، فأخذ العلماء يقربون من تحديد معناهما ، وعرف أبو هلال العسكرى البلاغة فقال[1] : إنها مأخوذ من قولهم : بلغت الغاية إذا انتهيت إليها فهى كل ما تُبلّغُ به المعنى قلب السامع فتمكّنه فى نفسه لتمكّنه فى نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن ، فالبلاغة عنده إيضاح المعنى وتحسين اللفظ معاً ، وأما الفصاحة فذكر أنهم اختلفوا فيها فقال قوم : إنها مأخوذة من قولهم أفصح فلان عما فى نفسه إذا أظهره ، وعلى هذا ترجع الفصاحة والبلاغة إلى معنى واحد وإن اختلف أصلهما فى اللغة ، وقال بعض العلماء : إن الفصاحة تمام آلة البيان ، وعلى هذا تكون الفصاحة مقصورة على اللفظ وحده . ويكون من الكلام ما هو فصيح وليس ببليغ ، كما يسمى الببغاء فصيحاً ولا يسمى بليغاً ، لأنه يقيم الحروف ولا يقصد إلى المعنى الذى تؤديه . وقال قوم : إن الكلام لا يسمى فصيحاً الا اذا كان واضح المعنى ، سهل اللفظ ، جيد السبك ، غير مستكره ولا متكلف ، وجمع الى هذا فخامة وشدة جزالة ، وعلى هذا يكون من الكلام ما هو

تعريف أبي هلال

(١) كتاب الصناعتين ص ٦ « طبعة الاستانة »

بليغ وليس بفصيح ، كقول ابرهيم بن العباس :

تمر الصَّبا[١] صَفحاً بساكنة الغَضَا ... ويصدعُ قلبي أن يهبَّ هبوبُها

قريبةُ عهد بالحبيب وإنما ... هوى كل نفس حيث حل حبيبها

فالبيت الأول فصيح وبليغ ، والبيت الثانى بليغ وليس بفصيح ، لأنه ليس فيه فخامة ولا شدة جزالة ، ولكن أبا هلال عاد بعد هذا فذكر[٢] أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ وحده ؛ لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى ، والقروى والبدوى إنما الشأن فى جودة اللفظ ، وصفائه ، مع صحة السبك والتركيب ، والخلو من أَوَدِ النظم والتأليف ولا يطلب من المعنى الا أن يكون صوابا ، ولا يقنع من اللفظ بهذا حتى يكون على تلك الأوصاف السابقة فاذا خلا منها لم يكن بليغاً ، وإن بلغ معناه ما بلغ ؛ وهذا كقول أبى تمام :

مُستَسلِمٌ لله سائس أمة ... بذوى تَجَهْضُمِهَا[٣] له استسلام

فانه صواب اللفظ وليس هو بحسن ولا مقبول ، وهذا بخلاف قول كثير عزة :

ولما قضينا من منى كلَّ حاجةٍ ... ومَسَّحَ بالاركان من هو ماسح

وشدت على حُدْبِ[٤] المهارى رحالُنا ... ولم ينظر الغادى الذى هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المَطِىِّ الأباطح

فليس تحت هذه الألفاظ كبير معنى ، ولكنها رائقة معجبة

تعريف عبد القاهر

وقد اضطرب الشيخ عبد القاهر الجرجانى فى أمر البلاغة والفصاحة اضطراب أبى هلال العسكرى ، فهما مترادفان عنده قطعاً ، ولكنه مرة يذهب الى أنهما يرجعان الى المعنى دون اللفظ ، ومرة يذهب الى أنهما يرجعان الى اللفظ دون المعنى

---

(١) الصبا الريح الشرقية ويقال مر بكذا صفحا اذا مر بجانبه ولم يؤثر فيه (٢) كتاب الصناعتين ص ٤٢ (٣) الجهضمة الوثوب والغلبة (٤) المهارى جمع مهرية منسوبة الى مهرة وحدبها مهازيلها جمع حدباء

ويؤخذ من كلامه أنهما مذهبان قديمان يرى ثانيهما الجاحظ، ويرى أولهما غيره، وقد حاول الخطيب القزوينى[١] أن يجمع بين كلامى عبد القاهر فى ذلك بحمل كلامه حيث نفى أن الفصاحة والبلاغة من صفات اللفظ على نفى أنهما من صفات المفردات من غير اعتبار التركيب، وحيث أثبت أنهما من صفاته على أنهما من صفاته باعتبار إفادته المعنى عند التركيب[٢]، وقيل إنه لا يرى الفصاحة والبلاغة فى اللفظ ولا فى المعنى وإنما هما عنده فى نظم الكلام أى فى الأسلوب، والنظم عنده عبارة عن توخى معانى النحو فيما بين الكلم، وذلك كالتقديم والتأخير، والذكر والحذف، والتعريف والتنكير، وما إلى ذلك، وهذا كما فى قول إبرهيم بن العباس:

فلو إذ نَبَا دهرٌ وأنكر صاحبٌ ... وسُلِّط أعداءٌ وغابَ نصيرُ
تكون عن الأهواز دارى بِنَجْوةٍ ... ولكن مقاديرٌ جرت وأمور
وإنى لأرجو بعد هذا محمداً ... لأفضلِ ما يُرْجَى أخٌ ووزير

فلا تجد ما فيه من الرونق والطلاوة إلا من أجل تقديمه الظرف الذى هو «إذ نبا» على عامله الذى هو «تكون» وأن قال «تكون» ولم يقل كان. ثم نكر الدهر وساق هذا التنكير فى جميع ما أتى بعده، ثم أن قال «وأنكر صاحب» ولم يقل وأنكرت صاحبا، وكل ذلك من معانى النحو كما ترى. ولا يريد الشيخ عبد القاهر من هذا أن المزية واجبة لهذه المعانى النحوية فى أنفسها، وإلا وجب أن يروقك التنكير أبداً، أو التعريف أبداً، وهكذا، وإنما يحسن ذلك عنده باصابته مواقعه وموافقته أغراضه، على ما سيأتى من اعتبار المطابقة لمقتضى الحال فى معنى البلاغة، وبهذا يظهر أن اعتبار هذه المعانى عنده فى الفصاحة والبلاغة غير اعتبارها فى علم النحو، فاعتبارها فى البلاغة يقوم على تطبيقها على أغراضها ودواعيها فى الكلام، واعتبارها فى النحو يقوم على بيانها فى أنفسها ليكون الكلام صحيحا لاخطأ فيه،

---

(١) شرح الايضاح جـ١ ص ٢٩ «المطبعة المحمودية التجارية» (٢) مقدمة نقد النثر ص ٢٨ «مطبعة دار الكتب المصرية»

ولكن يجب أن يعرف أن البلاغة والفصاحة لاتقومان على توخى معانى النحو وحدها عند عبد القاهر كما قيل فيما سبق ، بل تقومان عنده على ذلك وعلى غيره من الايجاز والاطناب ، والمجاز والكناية ، وغير ذلك من المعانى البيانية والبديعيه الآتية ، وقد قال فى البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة إنه لامعنى لهذه العبارات وما يجرى مجراها غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما كانت له دلالة ، وذلك بأن يؤتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته ، ويختار اللفظ الذى هو أخص به ، وأكشف عنه ، وأتم له

تعريف الخفاجى

وقد ذهب ابن سنان الخفاجى(١) إلى أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ ، أما البلاغة فلا تكون إلا وصفا للالفاظ مع المعانى ، وعلى هذا لايقال فى كلمة واحدة لاتدل على معنى يفضل عن مثلها إنها بليغة ، وإن قيل فيها إنها فصيحة ، فكل كلام بليغ فصيح ، وليس كل كلام فصيح بليغا ، كالذى يقع فيه الإسهاب فى غير موضعه والفصاحة على ذلك شطر البلاغة وأحد جزأيها ، ولها شروط إذا تكاملت فى الألفاظ فلا مزيد على فصاحتها ، وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من المدح ، وبوجود أضدادها تستحق الاطراح والذم ، وتلك الشروط تنقسم قسمين : فالأول منهما يوجد فى اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن يضم إليها شئ من الألفاظ وتؤلف معه ، والقسم الثانى يوجد فى الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض ، وقد قام كتابه على تفصيل تلك الشروط ، وبيان ما يخل بالفصاحة والبلاغة فى الكلام ، وما يتحققان به فيه

تعريف السكاكى

وذهب السكاكى (٢) إلى أن البلاغة هى بلوغ المتكلم فى تأدية المعانى حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها ، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها . وقسم الفصاحة الى قسمين : قسم يرجع الى المعنى وهو خلوص الكلام عن

---

( ١ ) سر الفصاحة ص ٥٥ « المطبعة الرحمانية »
( ٢ ) مفتاح العلوم ص ٢٢٠ « المطبعة الادبية »

التعقيد [١] ، وقسم يرجع الى اللفظ وهو أن تكون الكلمة عربية أصلية لا مما أحدثه المولدون ولا مما أخطأت فيه العامة ، وأن تكون سليمة عن التنافر ، وعلى ذلك لا تكون الفصاحة عنده لازمة للبلاغة كما يرى ابن سنان الخفاجي

تعريف الخطيب

وقد جاء الخطيب القزويني بعد هؤلاء الأئمة ، ففصل فى كتابيه ( تلخيص المفتاح والايضاح ) ما أجملوه من ذلك أحسن تفصيل ، وهذبه أجمل تهذيب ، فقسم الفصاحة الى قسمين : فصاحة فى الكلمة ، وفصاحة فى الكلام ، أما البلاغة فلا تكون الا فى الكلام وحده

الفصاحة فى الكلمة

والفصاحة فى الكلمة عنده خلوصها من ثلاثة أشياء : تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس اللغوى

تنافر الحروف

وتنافر الحروف وصف فى الكلمة يوجب ثقلها على اللسان وصعوبة النطق بها ، كما روى أن أعرابيا سئل عن ناقته فقال : تركتها ترعى الهُعْخُع [٢] ، وكما قال ابن جحدر :

حلفتُ بما أرْقَلَتْ حوله ... هَمَرْجلةٌ خَلْقُها شَيْظَمُ

وما شَبْرَقَت من تَنُوفِيَةٍ ... بها من وَحَى الجِنّ زِيزَيْزَمُ [٣]

ومن ذلك لفظ مستشزر فى قول امرىء القيس :

وفرعٍ يزين المتن أسودَ فاحمٍ ... أثيثٍ كقنو النخلة المُتَعَثْكِلِ

غدائرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إلى العلا ... تَضل المَدَارى فى مُثَنًّى ومُرْسَلِ [٤]

يشبه فرعها بقنو النخلة المتراكم وفى ذلك خشونة ظاهرة

---

(١) يعنى به التعقيد اللفظى أما التعقيد المعنوى فخلوص الكلام عنه يدخل عنده فى البلاغة لا فى الفصاحة وسيأتى بيانهما (٢) هو اسم شجر وقيل انها كلمة معاياة لا أصل لها

(٣) أرقلت أسرعت ، والهمرجلة الناقة السريعة ، والشيظم الطويل ، وشبرقت قطعت ، والتنوفية المفازة ، والوحى الصوت الخفى ، والزيزيزم حكاية أصوات الجن وهو محل الشاهد من البيتين (٤) الاثيث الكثير ، والقنو العنقود والمتعثكل المتراكم ، والمستشزرات المرتفعات ، والمدارى الامشاط

وقد يغتفر اللفظ من ذلك اذا لم يكن هناك لفظ غيره يدل على معناه ، والمعول في إدراك التنافر على الذوق الصحيح وهو لا يرجع في إدراكه الى ضابط معروف ، أو قاعدة مطردة ، وقد ذهب ابن سنان الخفاجي الى التعويل في ذلك على مخارج الحروف ، فاذا تركبت الكلمة من حروف متباعدة المخارج كانت سهلة النطق ، واذا تركبت من حروف متقاربة المخارج كانت ثقيلة النطق ، وهذا أمر لاينكر تأثيره في النطق بالكلمات ولكنه غير مطرد ، وهناك كلمات كثيرة مركبة من حروف متقاربة وهي مع هذا سهلة النطق ، مثل كلمة الشجرة والجيش والفم ونحوها

وقد يحصل ثقل النطق من طول بعض الكلمات مثل لفظ سويداواتها (١) في قول أبي الطيب :

ان الكريم بلا كرامٍ منهم  مثلُ القلوب بلا سُوَيْدَاواتِها

ولكن ذلك لايطرد أيضا ، وقد ورد منه غير مستثقل مثل قوله تعالى (ليستخلفنهم في الأرض) ، (فسيكفيكهم الله)

على أن هنا أمرا يجب ألا يغفل عنه ، وهو أن أصول الأبنية لا تحسن الا في الثلاثي وبعض الرباعي ، أما الخماسي الأصول نحو صَهْصَلِق وجَحْمَرِش وما جرى مجراهما فانه قبيح ، وقد خلا القرآن الكريم من مثل ذلك الا ما كان معربا من أسماء الأنبياء مثل ابرهيم واسماعيل ونحوهما ، وقد يثقل نطق بعض الأسماء الثلاثية مثل كلمة القَشّ وهو الموضع الخشن

**الغرابة** والغرابة أن تكون الكلمة غير ظاهرة المعنى ولا مألوفة الاستعمال عند العرب الخلص ، بخلاف المولدين لأنه يخفى عليهم كثير مما كان مأنوس الاستعمال عند العرب ولا يضر هذا في فصاحته ، والغرابة تكون بسببين : أولهما أن تكون الكلمة بحيث يحتاج في معرفة معناها الى بحث وتنقير في كتب اللغة ، كما روى عن عيسى بن عمر

(١) هذا ونحوه مما معنا أيضا لان المراد بالكلمة ماقابل المركب التام

النحوى أنه سقط عن حماره فاجتمع عليه الناس فقال لهم : مالكم تكأكأتم علىَّ تكأكؤكم على ذى جِنةٍ افرنقعوا عنى (١) وكقول تأبط شرا يصف ابن عم له بكثرة الترحال :

يظلُّ بموماةٍ ويُمسى بغيرها جحيشاً ويعرورى ظهورَ المسالكِ (٢)

وكقول المتنبى :

وما أرضى لمقلته بحُلمٍ اذا انتبهت توهمه ابتشاكا (٣)

ومتى كانت الكلمة بهذا الوصف فانها تكون غير فصيحة ولو أصبح معناها معروفا لنا بعد البحث والتنقير عنه ، والمدار فى غرابة الكلمة على عدم ظهور المعنى الموضوع له فلا يدخل فى ذلك متشابه القرآن الكريم ومجمله ، فان معناها الوضعى لاغرابة فيه ، وانما التشابه والاجمال فى مراد الله منهما ، كما فى قوله تعالى ( يد الله فوق أيديهم ) و(الرحمن على العرش استوى) ، وقد وقع مثل ذلك فى الشعر كقول أبى تمام :

ولهت فأظلم كلُّ شىء دونها وأضاء منها كلُّ شىء مظلم

فان الوله والظلمة والاضاءة أشياء مفهومة ، ولكن البيت بجملته يحتاج فهمه الى استنباط ، والمراد به أنها ولهت فأظلم مابينى وبينها من الجزع لولهها ، ووضح لى منها ما كان مستترا عنى من حبها لى

الغريب القبيح والحسن

وقد ذكر ابن الأثير(٤) أن الغريب ينقسم إلى قسمين : غريب قبيح وغريب حسن ، والأول هو ما كان ثقيل النطق لتنافر حروفه ، والثانى ما كان سهل النطق لعدم تنافر حروفه ، والناس فى استقباح الأول سواء ، لايختلف فيه عربى باد ، ولا قروى متحضر ، وأما الثانى فيختلف استعماله بالنسبة الى الزمن وأهله ، وهو الذى لايعاب استعماله عند العرب لأنه لم يكن عندهم وحشيا ، وهو عندنا وحشى ، وقد تضمن القرآن منه كلمات معدودة هى التى يطلق عليها غريب القرآن وكذلك تضمن الحديث منه شيئا هو الذى يطلق عليه غريب الحديث ، وقد كان

(١) تكأكأتم اجتمعتم ، وافرنقعوا انصرفوا (٢) الموماة المفازة ، وجحيشا فريدا ويعرورى يركب فرسه عريانا (٣) الابتشاك الكذب (٤) المثل السائر ص ٦١

النبي ﷺ لايلجأ اليه الافادرا أو مع أهله ، كما ورد فى حديث النبي ﷺ مع طهفة بن أبي زهير النهدى ، و قد وفد عليه فى قومه فقال : أتيناك يارسول الله من غَوْرَىْ (١) تهامة ،على (٢) أكوار الميس، ترتمى بنا العيس (٣) ،نستحلب الصَّبير (٤) ونستخلب الخَبير (٥) ، ونستعضد البَرير (٦) ،ونستخيل الرِّهام (٧)، ونستحيل (٨) الجهام ، فى أرض غائلة النِّطاء (٩) ، غليظة الوطاء ، قد نَشِفَ المُدْهُن (١٠) ، ويبِسَ الْجِعْثِن (١١) ، وسقط الأُملُوج (١٢) ، ومات العُسْلُوج (١٣) ، وهلك الهدِىّ (١٤) ، ومات الوَدِىّ (١٥) ، برئنا إليك يارسول الله من الوَثَن والفتن ، وما يحدث الزمن ، لنا دعوة السلام ، وشريعة الاسلام ، ما طما البحر ، وقام تعار (١٦) ، ولنا نَعَم هَمَلَ أغفال (١٧) ، ما تَبِضُّ ببلال (١٨) ، وَوَقير كثير الرَّسل ، قليل الرِّسل (١٩) ، أصابتنا سَنة حمراء مُؤْزِلة (٢٠) ، ليس لها عَلَل ولانهل (٢١) فقال رسول الله ﷺ : اللهم بارك لهم فى مَحْضها (٢٢) ومَخْضها ومَذْقها وفَرْقها (٢٣) ، وابعث راعيها فى الدَّثْر (٢٤)، بيانع الثمر ، وافْجُرْ له الثَّمَد (٢٥) وبارك له فى المال والولد ، من أقام الصلاة كان مسلماً ، ومن آتى الزكاة كان محسناً ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصاً ، لكم يابنى نَهْدٍ ودائع الشرك (٢٦) . ووضائع المِلْك (٢٧) ، لا يُلطَطُ فى الزكاة (٢٨) ، ولا يُلحَدُ فى الحياة ، ولا يُتثاقَلُ عن الصلاة

---

(١) الغور ما انخفض من الارض (٢) جمع كور وهو الرحل ، والميس شجر صلب (٣) الابل البيض مع شقرة يسيرة واحدها أعيس وعيساء (٤) سحاب أبيض متكاثف (٥) النبات والعشب واستخلابه احتشاشه (٦) ثمر الاراك واستعضاده جنيه (٧) الامطار الضعيفة واحدتها رهمة (٨) السحاب الذي فرغ ماؤه يعنى أنهم لاينظرون من السحاب فى حال الا الى جهام من قلة المطر (٩) البعد أى تغول سالكها ببعدها (١٠) نقرة فى الجبل يجتمع فيها المطر (١١) أصل النبات (١٢) ورق من أوراق الشجر يشبه الطرفاء والسرو (١٣) الغصن الحديث الطلوع (١٤) مايهدى الى البيت والمراد الابل كلها (١٥) صغار النخل (١٦) جبل (١٧) مهملة واغفال جمع غفل يعنى لا ألبان لها (١٨) مايقطر منها لبن (١٩) يعنى مواشى كثير عدد ما يرسل منها الى الرعى لكنها قليلة اللبن (٢٠) موقعة فى الازل وهو الضيق (٢١) النهل أول الشرب والعلل ثانى الشرب (٢٢) المحض اللبن الخالص (٢٣) المذق اللبن المخلوط بالماء والفرق مكيال اللبن (٢٤) الخصب (٢٥) الماء القليل أى أفجره لهم حتى يصير كثيرا (٢٦) ما كانوا استودعوه من الاموال فى شركهم (٢٧) ما يوضع عليهم من الزكاة لا يزاد عليها (٢٨) لا يمنع حقها

ثم رأى[1] أن يقيد منع استعمال الغريب الحسن لغير العرب بالنثر دون الشعر ، واستحسن من ذلك لفظ « مشمخر » فى أبيات بشر فى وصف الأسد :

وأطلقتُ المهنَّدَ من يمينى ... فقدَّ له من الأضلاع عشرا
فخرَّ مُضرَّجاً بدم كأنى ... هدمتُ به بناءً مُشمخِرًا

قال : وقد وردت هذه اللفظة فى خطب الشيخ ابن نباتة ، كقوله فى خطبة يذكر أهوال القيامة « اقمطر وبالها ، واشمخر نكالها » فما طابت ولا ساغت . ثم قال : واعلم أن كل ما يسوغ استعماله فى الكلام المنثور يسوغ استعماله فى المنظوم دون العكس ، وذلك شىء أستنبطه ودلنى عليه الذوق

لاقبح فى الغرابة لعدم الالف

والذى أراه فى هذا أن الذى يقبح استعماله من الغريب هو الغريب القبيح ، ونحن فى ذلك والعرب سواء ، وأما الغريب الحسن فلا يقبح استعماله فى كلامنا ولا فى كلام العرب ، ولا فى النثر ولا فى النظم وليست الغرابة إلا وصفاً طارئاً فيه يزول بالاطلاع على معناه ، وقد جاء القرآن بألفاظ غريبة فى معناها فاستنكرتها قريش وقد نزل بلغتها فلم يؤثر هذا فى فصاحته مثل لفظ الرحمن[2] فى استعماله اسماً لله تعالى ، ولفظ « كبارا[3] » فى سورة نوح ، ولفظ « قسورة[4] » فى سورة المدثر

الغرابة لبعد التخريج

والثانى : ألا تخرج الكلمة إلا على وجه بعيد ، وهذا إنما يكون اذا وقعت من عربى يحتج بلغته ، فلا يصح حملها على الخطأ ، بل تخرج على وجه من الوجوه ، كما فى قول العجاج :

« وفاحماً ومَرْسِناً مُسرَّجاً[5] »

---

(١) المثل السائر ص ٦٤ ق
(٢) وقد قال الله تعالى ذلك ( واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ) ولم يكن هذا الاسم مستعملا فى كلامهم كما استعمل الرحيم والرحوم والراحم
(٣) قيل انها لغة يمانيه (٤) قيل انها الاسد بالحبشية (٥) الفاحم الشعر الشديد السواد ، والمرسن الانف

فإن قوله « مُسَرَّجاً » اسم مفعول من سرج بتشديد الراء وهذه الصيغة قد تأتى للنسبة مثل كرمت فلاناً بمعنى نسبته إلى الكرم ، ولكن ذلك يكون بمعنى نسبة الشىء إلى أصله كالكرم ونحوه ، ولا شك أن مثل هذا لا يمكن فى سرج وما أخذ منه ، وقد تكلفوا له أصلا ينسب إليه ، وقالوا إنه يدل على النسبة إلى السراج أو السيف السُّرَيْجِيّ ، على معنى أنه فى البريق كالسراج ، أو في الدقة والاستواء كالسيف ، ووجه البعد في هذا التخريج أن هذه الصيغة تدل على نسبة الشىء الى أصله كما سبق ، ولا تدل على ذلك التشبيه ، وقد قيل إن هذا صيغة تشبيه لا صيغة نسبة مثل كرم ونحوه ، فيكون من قبيل التشبيه المحذوف الأداة مثل التشبيه فى هذا البيت :

فأمطرت لؤلؤاً من نَرْجِسٍ وَسَقَتْ وَرْداً وعضت على العُنَّاب بالْبَرَد

وقد جاء لذلك نظائر فى اللغة مثل مُدَنَّر من الدينار ، ومُذَهَّب من الذهب ومُمَسَّك من المسك ، ومُفَلْفَلْ من الفلفل ، ومن ذلك قول يزيد بن المُفَرِّغ :

وبُرُود مدنَّرات وقَزّ ومُلاء من أعتق الكَتَّانِ

والمعنى فى هذا على التشبيه أيضاً أى برود وشيها كالدنانير

غرابة التخريج من مخالفة القياس

على أن الذى أراه أن الحمل على الخطأ فى ذلك أولى من تكلف تخريج له ، ولا فرق عندى فيه بين عربى ومولد ، وأن مثل هذا يليق به أن يعد فى مخالفة القياس الآتية ، وإذن لا يبقى فى الغرابة شىء يصح أن يعد فيما يخل بفصاحة الكلمة ، ومن الناس من يعد استعمال المشترك فى أحد معنييه بدون قرينة من القسم الثانى من الغرابة

مخالفة القياس

ومخالفة القياس ألا تكون الكلمة جارية على العرف العربى الصحيح ، ويدخل فى هذا كل ما ينكره أهل اللغة ، ويرده علماء العربية ، وقد يكون ذلك لأجل أن اللفظة غير عربية كما أنكروا على أبى الشيص قوله :

وجناح مقصوص تحَيَّفَ ريشَه     ريبُ الزمان تحيُّفَ المقراضِ

لأن المقراض لم يسمع إلا مثنى ، وقد أجاز سيبويه إفراده

وقد يكون ذلك لاستعمال الكلمة فى غير ماوضعت له فى عرف اللغة ، كما قال أبو عبادة :

يشقُّ عليه الريح كلَّ عشيةٍ     جيوبَ الغمام بين بِكْرٍ وأَيِّم

فوضع الأيم مكان الثيب ، وليس الأمر كذلك ، لأن الأيم التى لازوج لها بكرا كانت أو ثيبا

وقد يكون ذلك لشذوذ فى الكلمة ، كشذوذ الحذف فى قول النجاشى :

فلستُ بآتيه ولا أستطيعه     ولَاكِ اسقنى إن كان ماؤكَ ذا فَضْل

أراد ولكن اسقنى ، وكشذوذ الزيادة فى قول الشاعر :

تنفى يداها الحصا فى كل هاجرة     نفْيَ الدَّراهيم تنقَادُ الصَّياريفِ

يريد الدراهم والصيارف ، وكفكّ الإدغام فى قول أبى النجم :

الحمد لله العلىِّ الأجْلَلِ     الواهبِ الفضلِ الوَهُوبِ المجْزِل

والقياس الصرفي الأجل ، الى غير ذلك من اللغات الشاذة التى هجر استعمالها وقد جاء فى القرآن الكريم بعض منها ذكره السيوطى فى كتابه « الاتقان » لأنه لم يكن فى لغة قريش لفظ بمعناها ، أو لغير ذلك مما دعا الى ذكرها فيه ، وقد تبيح ضرورة الشعر بعض هذا الشذوذ ، كما تبيح قصر الجمع الممدود ، ومد الجمع المقصور وبعض علماء اللغة لا يغتفر للشاعر شيئاً من ذلك ، ولا يفرق فيه بين شعر ونثر ولعل هذا هو الذى يجب أن يعمل به

ابتذال الكلمة

وقد ترك الخطيب أمراً عده ابن سنان الخفاجى[1] وابن الأثير فيما يخل بفصاحة الكلمة ، وهو أن تكون الكلمة مبتذلة ، وذلك على ضربين : أولهما أن

---

(١) سر الفصاحة ص ٦٩ والمثل السائر ص ٦٩ أيضا

يكون اللفظ دالا على معنى فى أصل اللغة فتجعله العامة دالا على معنى آخر يكره ذكره أو لا يكره ، كقول أبى الطيب :

أذاق الغوانى حُسْنُهُ ما أذقننى وعفَّ فجازاهنَّ عَنّى بالصَّرْم

فان الصرم فى اللغة القطع ، فغيرته العامة وجعلته دالا على المحل المخصوص من الحيوان دون غيره فأبدلوا السين صادا ، ومثل هذا لا يعاب البدوى على استعماله كما يعاب المتحضر ، لأن الألفاظ لم تتغير عن أصل معناها فى زمن البدوى ولم تتصرف فيها العامة هذا التصرف ، ولهذا لا يعاب ذلك اللفظ على أبى صخر الهذلى فى قوله :

قد كان صَرْمٌ فى الممات لنا فعجلتِ قبل الموت بالصَّرْمِ

وثانيهما أن يكون للمعنى الواحد كلمتان عربيتان فتكثر إحداهما فى ألسنة العامة ويتحاشاها الخاصة ، فيقبح ما استعمله العامة لابتذاله ، مثل لفظ الشطار فى قول أبى نواس :

ومُلِحَّة بالعذل تحسب أننى بالجهل أترك صحبة الشُّطَّارِ

ولا يكاد يخلو من ذلك شعر شاعر ، لكن منهم المقل ومنهم المكثر ، حتى إن العاربة قد استعملته فى أشعارها وإن كان فيها أقل ، ومن ذلك لفظ آجر فى قول النابغة الذبيانى :

أو دُمْيَة فى مَرْمَرٍ مرفوعة بُنِيَت بآجُرٍّ يشاد بقَرْمَدِ

وكلفظ القمل فى قول زهير بن أبى سُلمَى :

وأقسمتُ جهدًا بالمنازل من مِنًى
وما سُحِقَت (١) فيه المَقَادِيمُ والقَمْلُ

لا تبعة فى ابتذال الكلمة — وإنى أرى أن أمر العامة أهون من أن يحدث مثل هذا الأثر فى ألفاظ اللغة فلا شىء عندى فى استعمال هذه الألفاظ بقسميها ، والكل

(١) حلقت

من ألفاظ الخاصة وألفاظ العامة مقامات تقتضيها ، ولعل هذا هو السبب فى إهمال الخطيب عدَّ ذلك فيما يخل بفصاحة الكلمة

فلا يخل عندنا بفصاحة الكلمة إلا شيئان : تنافر الحروف ، ومخالفة القياس وأما الغرابة والابتذال فلا يخلان بفصاحتها عندنا ، وقد ذكر ابن سنان الخفاجى[1] فيما يخل بفصاحة الكلمة أن تكون مكروهة فى السمع مثل كلمة الجِرِشَّى فى قول أبى الطيب :

الكراهة فى السمع

مباركُ الاسمِ أغرُّ اللقبْ كريمُ الجِرِشَّى[2] شريفُ النسبْ

ومثل كلمة حقلّد فى قول زهير بن أبى سُلمى :

تقىٍّ نقىٍّ لم يُكَثِّرْ غنيمةً بنَهْكَة[3] ذى قربى ولا بِحَقَلَّدِ

وقد رد الخطيب ذلك بأن الكراهة فى السمع لاتكون إلا من تنافر حروف الكلمة أو وحشيتها ، فليست شيئاً آخر غير التنافر والغرابة

---

الفصاحة فى الكلام

والفصاحة فى الكلام عند الخطيب خلوصه من ثلاثة أشياء : ضعف التأليف ، وتنافر الكلمات ، والتعقيد ، فإذا خلا الكلام من هذه الثلاثة كان فصيحاً ، ولكن لابد فيه مع ذلك من فصاحة كلماته التى يتألف منها ، بخلوها هى أيضاً مما يخل بفصاحتها ، فإذا لم تخلُ مما يخلّ بفصاحتها لم يكن هو أيضاً فصيحا ، مثل قول امرىء القيس :

غدائره مُسْتَشْزِرَاتٌ إلى العلا تضل المَدارَى فى مُثَنًّى ومُرْسَلِ

فهو كلام غير فصيح ، وإن لم يكن فيه ضعف تأليف ولا تنافر كلمات ولا تعقيد

ضعف التأليف

وضعف التأليف أن لايكون الكلام جاريا على القانون النحوى المشهور ، بأن يكون هناك قولان فيجرى على الضعيف فيهما ، كعود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة فى قول حسان بن ثابت :

---

(١) سر الفصاحة ص ٦١ و ٦٢ (٢) النفس (٣) النهكة الغلبة والحقلد السيء الخلق

ولو أن مجداً أخلدَ الدهرَ واحداً  من الناس أبقى مجدُهُ الدهرَ مُطعِما [1]

وقد أجاز ابن مالك ذلك قياسا على إجازتهم له فى باب نعم وبئس وضمير الشان وغيرهما ، ومن ذلك وصل الضمير بالا فى قول الشاعر :

ليس إلاك يا علىُّ هُمامٌ  سيفهُ دون عِرْضِهِ مسلولُ

ومنه نصب المضارع مع حذف أن فى قول طرفة بن العبد :

ألا أيهذا الزَّاجرى أحضُرَ الوغى  وأن أشهد اللذاتِ هل أنت مُخلِدِى

ضعف التاليف لايخل بالفصاحة

وقد يكون تشديد الخطيب إلى هذا الحد فى أمر الاعراب واشتراطه فى فصاحة الكلام أن يجرى على قانون النحو المشهور نتيجة تساهل قوم قبله فى أمر الاعراب ، ومنعهم أن يكون إعراب الكلام شرطا فى فصاحته ، وقدعنى ابن سنان الخفاجى [2] بالرد عليهم ، ولكنه لم يشدد فى مراعاة الإعراب هذا التشديد الذى سلكه الخطيب ، ولعل التوسط فى ذلك خير من التشديد فيه ، فلا تكون مراعاة مذهب الجمهور شرطا فى فصاحة الكلام ، بل يكفى مراعاة ما يجوز فى ذلك وإن لم يكن هو المذهب المشهور ، وقد جاء فى القرآن الكريم قراءات كثيرة على غير مذهب جمهور النحاة ، مثل قوله تعالى ( قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ) فقد جرى فى بعض القراءات على لغة من يجرى المثنى بالألف فى أحواله الثلاث ، وهى لغة مشهورة لكنانة وقيل لبنى الحارث

لايقبح الاما لايجيزه النحو أصلا

فمثل هذا إذن لا يصح أن يؤثر فى فصاحة الكلام ، إنما يجب أن يقصر ذلك على ما لا يجيزه النحو أصلا ، كحذف الإعراب فى قول امرىء القيس :

---

(١) هو مطعم بن عدى أحد رؤساء المشركين وكان يذب عن النبي صلى الله عليه وسلم

(٢) سر الفصاحة ص ١٠٠ و ١٠١ وممن يرى هذا ابن خلدون فى مقدمة تاريخه ص ٦٥٠

فاليوم أشربْ غير مستحقب إثمًا من الله ولا واغلِ[1]

وكتحريك ياء المنقوص المجرور فى قول الشاعر :

ما إن رأيت ولا أرى فى مدتى كجواريِ يلعبن فى الصحراء

إلحاق عيوب القافية بذلك

وقد يلحق بذلك عيوب القافية كالإقواء فى قول النابغة الذبيانى :

سقط النَّصيفُ ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليَدِ

بمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأن بَنانَهُ عَنَمٌ يكاد من اللطافة يُعقَدُ[2]

تنافر الكلمات

وتنافر الكلمات ينشأ من أمور منها تكرر حرف أو حرفين فى الكلام كالبيت الذى أنشده الجاحظ :

وقبرُ حربٍ بمكان قَفْرُ[3] وليس قرب قبر حرب قبرُ

ومنها إيراد أفعال يتبع بعضها بعضا بدون عطف أو معه مثل قول المتنبى :

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِعِ احملْ عَلِّ سَلِّ أعِدْ زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ

ومثل قول ديك الجن :

احلُ وامْرُرْ وضُرَّ وانفعْ وَلِنْ واخْشُنْ وَرِشْ[4] وابْرِ وانتدبْ للمعالى

ومنها إيراد صفات متعددة على طريق واحدة كقول المتنبى :

دانٍ بعيدٍ مُحِبٍّ مبغض بهجٍ أغرَّ حُلوٍ مُمِرٍّ لَيِّنٍ شَرِسِ

ومنها تكرار الأدوات وتعاقب بعضها إثر بعض كقول أبى تمام :

كأنه فى اجتماع الروح فيه له فى كل جارحة من جسمه رُوحُ

ومنها تتابع الإضافات كما فى قول ابن بابك :

حمامةَ جَرْعا حَوْمةِ الجندلِ اسْجَعِى فأنتِ بمرأى من سُعادَ ومَسْمَعِ

والحق أن نقل هذه الإضافات لأن الجرعاء المكان ذو الرمل ، وحومة

---

(١) المستحقب المكتسب والواغل الذى يدخل على قوم يشربون بدون دعوة منهم يريد أنه تحلل من يمينه بقتل قاتل أبيه (٢) النصيف كل ماغطى الرأس من خمار ونحوه والرخص الناعم

(٣) قيل هذا البيت فى حرب بن أمية . وقفر بالجر على الصفة أوبالرفع على القطع

(٤) أمر من راش بمعنى ضعف

الشيء معظمه ، والجندل الحجارة ، ولا معنى لتكلف إضافة الحمامة إلى ذلك كله ، وقد جاء تتابع الإضافات سهلا لا تكلف فيه في قوله تعالى ( مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد ) وفي قول ابن المعتز :

وظلت تدير الراحَ أيدى جآذرٍ  عتاقٍ دنانيرِ الوجوهِ ملاحِ [1]

وقد جاء أيضاً تتابع الصفات سهلا مقبولا في قوله تعالى : ( عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا ) كما جاءت كثرة التكرار غير مخلة بالفصاحة في قول النبي ﷺ : الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم

فالواجب أن يرجع في تنافر الكلمات الى الذوق الصحيح ، وأن يعول عليه في ذلك كما عول عليه في تنافر الحروف ، وقد سبق أنه لا يرجع في إدراكه إلى ضابط معروف ، أو قاعدة مطردة ، كما أنه يجب ألا يعد من ذلك مالا يتناهى في الثقل ، مثل اجتماع الحاء والهاء مع التكرار في قول أبي تمام :

كريمٌ متى أمدحهُ أمدحهُ والورى  معى وإذا ما لمتهُ لمتهُ وحدى

فان مثل هذا الثقل أمر محتمل ، ولا يمكن أن تدور لغة من اللغات على السهولة وحدها

التعقيد

والتعقيد ألا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى المراد منه لخلل في تأليفه أو في دلالته ، والأول يسمى تعقيدا لفظيا ، والثاني يسمى تعقيدا معنويا ، ومن الواضح أن ذلك لا يتناول المجمل والمتشابه الواقعين في كلام الله تعالى ، لأن عدم ظهورها ليس لخلل في تأليفهما أو في دلالتهما على نحو ما يأتي في التعقيد اللفظي والتعقيد المعنوي

الخلاف في الالغاز

وأما الألغاز مثل قول الحريري في المِرْوَدِ :

وما ناكحٌ أختين [2] سراً وجهرةً  وليس عليه في النكاح سبيل

---

(١) الراح الخمر ، والجآذر جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية ، والعتاق الكرام جمع عتيق

(٢) يعني بالاختين العينين

ومثل قول الآخر فى الضِّرْس :

وصاحب لا أمَلُّ الدهر صحبته يسعى لنفعى ويسعى سعى مجتهدِ
ما إن رأيتُ لهشخصا فمذ وقعتْ عينى عليه افترقنا فرقة الأبَدِ

فقد ذهب بعض علماء البلاغة إلى أنها من التعقيد المخل بفصاحة الكلام ، ومنهم من يعدها من المحسنات البديعية ، ولا شك أنها بأسلوب المؤلفين أشبه منها بأسلوب الأدباء

التعقيد اللفظى

والتعقيد اللفظى أن ترتب الألفاظ على خلاف ترتيب المعانى ، فيختل بذلك نظم الكلام ، ويصعب فهم المراد منه ، كما فى قول الشاعر :

فأصبحتْ بَعْدَ خَطَّ بَهْجَتِها كأن قفراً رُسُومَها قَلَما

يريد فأصبحت بعد بهجتها قفراً كأن قلما خط رسومها ، ومن ذلك قول الفرزدق :

وما مثله فى الناس إلا مُمَلَّكا أبو أمه حَيٌّ أبوه يقاربُهْ

يريد وما مثله فى الناس حى يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه ، وقد مدح بهذا ابراهيم بن هشام المخزومى خال هشام بن عبد الملك ، وهو الذى عناه بقوله مملكا ويجوز أن يكون نظم الكلام وما مثله فى الناس حى إلا مملكا يقاربه أبو أمه أبوه فيكون المراد قرب النسب لا أنه يدانيه فيما مدح به ، والأولى أن يحمل هذا على الاستثناء المنقطع ، مثل قوله تعالى ( لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ) لأن شأن هشام أعلى من أن يثبت له من ذلك ما نفى عن غيره ، لأنه كان ملكا عظيما ، ولم يكن إبراهيم إلا عاملا له

ومن ذلك أيضاً قول الفرزدق فى الوليد بن عبد الملك :

إلى ملك ما أمُّه من مُحاربٍ أبوه ولا كانت كليب تُصاهِرُهْ

يريد إلى ملك أبوه ما أمه من محارب ، وهي قبيلة من قبائل العرب

التعقيد المعنوى

والتعقيد المعنوى ألا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى المراد منه ، ويكون

هذا بأن يراد باللفظ غير ما وضع له من غير اعتماد على علاقة قريبة وقرينة واضحة كما قال الحطيئة :

ومن يطلب مساعى آل لأىٍ    تُصَعِّدْهُ الأمور إلى علاها

يريد أنه يلقى صعوبة كما يلقى الصاعد من أسفل الى علو فلم يعبر عنه تعبيرا مبينا

وكما قال زهير بن أبى سلمى :

ومن لم يَذُدْ عن حوضه بسلاحه    يُهَدَّمْ ومن لا يَظلم الناس يُظلَمِ

أراد بقوله ومن لا يظلم الناس من لا يدفع الأذى عن نفسه ، فاستعمل الظلم فى دفع الأذى ، وإنما هو تسليط الأذى على الناس ، وقد أراد منه ذلك بدون علاقة وقرينة يصح معهما إرادة ذلك منه ، ولولا أن زهيراً لا يليق به أن يحض على الظلم لكان كلامه فى هذا مثل قول عنترة العبسى :

وإذا بُليتَ بظالم كن ظالماً    واذا بُليتَ بذى الجهالة فاجهَلِ

ويجوز أن يكون ذلك من المشاكلة مثل قوله تعالى ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ فلا يكون من التعقيد المعنوى

ومن ذلك أيضاً قول أوس بن حَجَر :

وذات هِدْمٍ عارٍ نواشرُها    تُصْمِتُ بالماء تَوْلباً جدِعا

سمى الصبى تولباً وهو ولد الحمار ، فهى استعارة بعيدة فاحشة

وكذا قول الشاعر :

ظعنوا فكان بُكاى حولا بعدهم    ثم ارعويتُ وذاك حكمُ لَبيدِ

أجْدِرْ بجمرة لوعة إطفاؤها    بالدمع أن تزداد طولَ وُقود

جعل الكف عن البكاء كناية عن إطفاء غليله بدليل البيت بعده ، والمعروف أن البكاء هو الذى يطفىء الغليل لا الكف عنه ، كما قال امرؤ القيس :

وإن شفائى عَبْرَةٌ مُهَراقَةٌ    فهل عند رسم دارس من مُعَوَّلِ

ويجوز أن يكون مراده حقيقة الكف عن البكاء، لا الكناية عن إطفاء الغليل فلا يكون فيه هذا التعقيد

وقد ذكروا من ذلك أيضا قول العباس بن الأحنف :

سأطلب بُعْدَ الدار عنكم لتقربوا     وتسكب عيناى الدموع لِتَجْمُدا

جعل جمود العين كناية عن السرور ، وإنما يكنى به عن بخلها بالدموع فى حال ارادة البكاء ، كما قال أبو عطاء فى رثاء ابن هُبَيْرَة :

ألا إن عيناً لم تَجُدْ يوم واسِطٍ     عليك بجارى دمعها لَجَمُودُ

وقد قال بهاء الدين السبكى [1] : انه يجوز أن يراد فى البيت الأول حقيقة الجمود ، وعلى هذا لا يكون فيه تعقيد ، وقد جاء فى القاموس أنه يقال عين جمود و رجل جامد العين بمعنى أنها جامدة لا تدمع ، ولم يقيد ذلك بحال ارادة البكاء

ابتذال الكلام

وقد ترك الخطيب مما يعد فيما يخل بفصاحة الكلام ابتذاله وسخافة ألفاظه وفتورها ، مثل قول بشار :

رَبابَةُ رَبَّةُ البيتِ     تَصُبُّ الخلَّ فى الزيتِ

لها عشر دجاجات     وديكٌ حسن الصوت

ومثل قول أبى العتاهية : فى رثاء سعيد بن وهب :

مات والله سعيد بن وهبٍ     رحم الله سعيد بن وهب

يا أبا عثمان أبكيت عينى     يا أبا عثمان أوجعت قلبى

الابتذال لا يخل بالفصاحة

وشأن هذا عندى شأن ابتذال الكلمة فى فصاحة المفرد ، ولعل الخطيب أهمله لهذا ، وقد قيل لبشار فى ذلك : يا أبا معاذ ، إنك لتجىء بالأمر المهجن ، قال وما ذاك ؟ قيل إنك تقول :

اذا ما غضبنا غضبة مضرِيَّةً     هتكنا حجاب الشمس أو مطرت دَما

اذا ما أعرنا سيداً من قبيلة     ذُرَى منبر صلى علينا وسلّما

---

(١) عروس الافراح ص ١١٢ ج١ من شروح التلخيص

ثم تقول :

« ربابة ربة البيت . البيتين »

فقال : كل شىء فى موضعه ، وربابة هذه جارية لى ، وأنا لا آكل البيض من السوق ، فربابة هذه لها عشر دجاجات وديك ، فهى تجمع لى هذا البيض وتحفظه لى ، فكان هذا من قولى لها أحب اليها وأحسن عندها من :

« قِفَا نَبْكِ من ذكرى حبيب ومنزلِ »

فالابتذال إنما يعد عيباً فى الكلام إذا وضع فى غير موضعه ، كما فعل أبو العتاهية فى رثائه ، وهذا عيب لا شأن له بالفصاحة ، وإنما يرجع الى البلاغة على ماسيأتى فيها ومن المواضع التى يطلب فيها استعمال المبتذل الهزل والمشاتمة والحكاية وما اليها

---

البلاغة فى الكلام

والبلاغة فى الكلام مطابقته لمقتضى الحال بشرط فصاحته ، فلابد عند الخطيب فى الكلام البليغ من أن يكون فصيحا ، والحال هو الأمر الذى يقتضى أن يؤتى بالكلام على صفة مخصوصة مناسبة له ، من ذكر أو حذف أو تقديم أو تأخير أو غير ذلك ، ويسمى الحال المقام أيضا ، وتسمى تلك الصفات خصائص ومزايا ونكات ، وقد قال الخطيب إن تطبيق الكلام على مقتضى الحال هو الذى يسميه الشيخ عبد القاهر بالنظم ، وهو عنده عبارة عن توخى معانى النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التى يصاغ لها الكلام

تفاوت مقامات الكلام

ومقامات الكلام متفاوتة ، فمقام التنكير يباين مقام التعريف ، ومقام الاطلاق يباين مقام التقييد ، ومقام التقديم يباين مقام التأخير ، ومقام الذكر يباين مقام الحذف ، ومقام القصر يباين مقام خلافه ، ومقام الفصل يباين مقام الوصل ، ومقام الايجاز يباين مقام الاطناب والمساواة ، وخطاب الذكى يباين خطاب الغبى ، وهكذا مما سيأتى تفصيله

وكما تتفاوت مقامات الكلام فى ذلك تتفاوت مقامات الكلمة الواحدة ، حتى

ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر كلفظة الأخدع فى قول الصمة بن عبد الله :

تلفتُّ نحو الحيّ حتى وجدتني    وجعتُ من الاصغاء(١) ليتاً وأخدعا

وفى قول أبى تمام :

يادهر قوِّمْ من أخدعيك فقد    أضججتَ هذا الأنام من خُرُقِكْ

فان لها فى المكان الأول مالا يخفى من الحسن ، كما أن لها فى المكان الثانى مالا يخفى من الثقل على النفس ، ومن ذلك لفظة شىء فى قول عمر بن أبى ربيعة :

وَمِنْ مالىء عينيه من شىء غيره    إذا راح نحو الجمرة البيض(٢) كالدُّمى

وفى قول أبى حية :

إذا ماتقاضى المرء يومٌ وليلةٌ    تقاضاه شىء لا يمل التقاضيا

فان لها فى ذلك كثيراً من الحسن والقبول ، ولكنها فى قول المتنبى :

لو الفلكُ الدوّارُ أبغضتَ سعيه    لعوّقه شىء عن الدَّوَرانِ

تقلّ وتضؤل ولا يوجد فيها شىء من الحسن والقبول

ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد ، وكلاهما حسن فى الاستعمال ، ولكنه لايحسن استعمال أحدهما فى كل موضع تستعمل فيه الأخرى ومن ذلك قوله تعالى ( ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ) وقوله تعالى : ( رب انى نذرت لك مافى بطنى محرراً ) فاستعمل الجوف فى الأولى والبطن فى الثانية ، ولم يستعمل الجوف موضع البطن ولا البطن موضع الجوف

وقد روى أن رجلا أنشد ابن هرمة قوله :

بالله رَبِّكَ إن دخلتَ فقل لها    هذا ابن هَرْمَةَ قائما بالبابِ

---

(١) الليت صفحة العنق والأخدع عرق فيهاوهماعرقان يقال لهما أخدعان

(٢) جمع دمية وهى الصورة الحسنة

فقال له : ما هكذا قلتُ أ كنتُ أتصدق ؟ قال فقاعدا ، قال أ كنت أبول ؟ قال فماذا ؟ قال واقفاً ، ليتك علمت ما بين هذين من قدر اللفظ و المعنى

منزلة المحسنات البديعية فى البلاغة

وقد جرى الخطيب على أن المحسنات البديعية من السجع والجناس ونحوهما لا ترجع الى البلاغة ولا الى الفصاحة ، وإنما تورث الكلام حسنا وقبولا ، ولا يتوقف عليها أمر بلاغته أو فصاحته ، ومن العلماء قبله من كان لا يفرق بينها وبين غيرها من وجوه البلاغة والفصاحة ، ومنهم من كان يجعلها من طرق الفصاحة ويجعل غيرها مما يتعلق بنظم الكلام أو دلالته من طرق البلاغة ، والحق ما جرى عليه الخطيب فيها ، لأن غيرها من وجوه البلاغة والفصاحة مما يجب التزامه فى الكلام عند اقتضاء الحال له ، أما هى فإنما تحسن فى الكلام إذا جاءت عفو الخاطر ، وعند سماحة القريحة بها ، فأما أن يلزمها الانسان فى جميع قوله فذلك جهل من فاعله ، وَعِيٌّ من قائله ، وسيأتى بيان ذلك فيها

تكلف الاستعارات ونحوها كتكلف المحسنات

وقد يلحق عندى بالمحسنات البديعية فى ذلك مثل التشبيه والاستعارة وغيرهما من وجوه البلاغة التى لا تبنى على اقتضاء الحال ، ولا تأتى لأمر يستدعيها فى الكلام ، فيجب الاقتصاد فيها أيضاً ، وألا تتكلف فيه تكلفا ، وإلا كان شأنها فى ذلك شأن المحسنات البديعية

مراتب البلاغة

هذا وللبلاغة طرفان : أعلى وهو الذى يبلغ رتبة الاعجاز ، وذلك هو كتاب الله تعالى ، وأسفل وهو الذى اذا غير الكلام عنه الى ما دونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات ، وان كان صحيح الاعراب ، وبين الطرفين مراتب كثيرة متفاوتة وقد أنكر فخر الدين الرازى [1] أن يكون الطرف الأسفل من البلاغة ، لأن منزلتها عنده أعلى منه ، ويجب على هذا ألا يكتفى فى تعريفها بما سبق

(١) نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز ص ١١ « مطبعة الآداب والمؤيد »

# اللفظ والمعنى

قد ذكرنا خلاف العلماء فى رجوع الفصاحة والبلاغة الى اللفظ أو المعنى ، والحق أنهما يرجعان الى اللفظ والمعنى معاً ، وقد قال ابن رشيق [١] : اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه ، وكذلك ان ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ ، فان اختل المعنى كله وفسد بقى اللفظ مواتاً لافائدة فيه ، وان كان حسن الطلاوة فى السمع ، وان اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى ، ثم للناس فيما بعد آراء ومذاهب ، منهم من يؤثر اللفظ على المعنى فيجعله غايته ووكده ، وهم فِرَق : قوم يذهبون الى فخامة الكلام وجزالته على مذهب العرب من غير تصنع ، كقول بشار :

رجوع البلاغة الى اللفظ والمعنى

من يؤثر اللفظ على المعنى

اذا ما غضبنا غضبة مُضَرِيّةً  هتكنا حجابَ الشمس أو قطرتْ دما
اذا ما أعرنا سيداً من قبيلةٍ  ذُرَى منبر صلّى علينا وسلّما

وهذا النوع أدل على القوة وأشبه بما وقع فيه من مواضع الافتخار ، وكذلك ما مدح به الملوك يجب أن يكون من هذا النحت ، وفرقة أصحاب جلبة وقعقعة بلا طائل معنى الا القليل النادر ، كأبى القاسم بن هانىء ، فانه يقول أول مذهبته :

أصاختْ فقالتْ وَقْعُ أجردَ شيْظَمِ  وشامتْ فقالتْ لَمْعُ أبيض مِخْذَمِ
وما ذُعِرَتْ الا لِجَرْسِ حُلِيِّها  ولا رمقتْ الا برًى فى مُخدَّمِ [٢]

وليس تحت هذا كله الا الفساد وخلاف المراد ، ما الذى يفيدنا أن تكون هذه المنسوب بها لبست حليها فتوهمته بعد الاصاخة والرمق وقع فرس أو لمع سيف غير أنها مغزوة فى دارها أو جاهلة بما حملته من زينتها ؟ ولِمَ يخفى عنها مراده

(١) العمدة ص ٨٠ ج١ « مطبعة هندية » (٢) الاجرد الفرس القصير الشعر والشيظم الطويل الجسم والمخذم القاطع والبرى جمع برة وهى الخلخال والمخدم موضعه من الرجل

أنها كانت تترقبه ؟ فما هـذا كله ؟ ومنهم من ذهب الى سهولة اللفظ فعنى بها ، واغتفر له فيها الركاكة والاين المفرط ، كأبى العتاهية والعباس بن الأحنف ومن تابعهما وهم يرون الغاية قول أبي العتاهية :

| | |
|---|---|
| يا إخوتى إن الهوى قاتلى | فسيِّروا الأكفان من عاجل |
| ولا تلوموا فى اتباع الهوى | فاننى فى شُغُلٍ شاغل |
| عينى على عُتْبَةَ مُنْهَلَّةٌ | بدمعها المنسكب السائل |
| يامن رأى قبلى قتيلا بكى | من شدة الوجد على القاتل |
| بسطت كفى نحوكم سائلا | ماذا تردون على السائل |
| ان لم تُنيلُوهُ فقولوا له | قولا جميلا بدل النائل |
| أو كنتمُ العام على عُسْرَةٍ | منه فَمَنُّوهُ الى قابل |

من يؤثر المعنى على اللفظ

ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ، ولا يبالى حيث وقع من هجنة اللفظ وقبحه وخشونته ، كابن الرومى وأبى الطيب ومن شاكلهما ، وأكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى ، لأن المعانى موجودة فى طباع الناس ، يستوى الجاهل فيها والحاذق ، وانما العمل على جودة اللفظ ، وحسن السبك ، وصحة التأليف ، ولو أن رجلا أراد فى المدح تشبيه رجل لما أخطأ أن يشبهه فى الجود بالغيث ، وفى الاقدام بالأسد ، وفى المضاء بالسيف ، فان لم يحسن تركيب هذه المعانى فى أحسن حلاها ، من اللفظ الجيد الجامع للرقة والجزالة ، والعذوبة والطلاوة ، لم يكن للمعنى قدر . وعندى أن فى دعوى أن المعانى موجودة فى طباع الناس بحيث يستوى فيها الجاهل والحاذق مغالاة ظاهرة

---

# المعانى المحدثة

الاستشهاد بمعاني المولدين

ذكر ابن رشيق أن أبا الفتح عثمان بن جنى قال[١] : المولدون يستشهد بهم فى المعانى كما يستشهد بالقدماء فى الألفاظ ، ثم قال : والذى ذكره أبو الفتح صحيح بيّن لأن المعانى إنما اتسعت لاتساع الناس فى الدنيا ، وانتشار العرب بالاسلام فى أقطار الأرض ، فمصروا الأمصار ، وتأنقوا فى المطاعم والملابس ، وعرفوا بالعيان عاقبة مادلتهم عليه بداهة العقول من فضل التشبيه وغيره . ومن هنا يحكى عن ابن الرومى أن لائماً لامه فقال لم لا تشبه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ قال أنشدنى شيئاً من قوله الذى استعجزتنى فى مثله ، فأنشده فى صفة الهلال :

فانظُرْ إليه كزورقٍ من فضَّة ... قد أثقلتْه حمولةٌ من عنبرِ

فقال زدنى فأنشده :

كأنَّ آذريونَها ... والشمسُ فيها كاليَهْ

مَداهنٌ من ذهبٍ ... فيها بقايا غاليَهْ[٢]

فصاح واغوثاه يالله ، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذلك انما يصف ماعون بيته ، لأنه ابن الخلفاء ، وأنا أى شىء أصف ؟ ولكن انظروا إذا وصفت ما أعرف أين يقع الناس كلهم منى ، هل قال أحد قط أملح من قولى فى قوس الغمام :

وقد نشرتْ أيدى السحاب مطارفاً ... على الأرض دُكناً وهى خضرٌ على الأرض

يطرِّزها قوس الغمام بأصفرٍ ... على أحمرٍ فى أخضرٍ وَسْطَ أبيض

كأذيال خودٍ أقبلتْ فى غلائلٍ ... مصبَّغة والبعضُ أقصرُ من بعض

(١) العمدة ص ١٨٣ ج ٢

(٢) الآذريون ورد له أوراق حمر فى وسطه سواد له نمو وارتفاع وقد يكون أصفر وعليه اقتصر صاحب القاموس . وكالية اسم فاعل من كلأ ومعنى كلاءتها للشمس أنها تدور معها حيث دارت . والمداهن جمع مدهن وهو حق الدهن . والغالية أخلاط من الطيب

موازنة بين القدماء والمحدثين

وللمحدثين معان جيدة انفردوا بها عن القدماء ، ومعان شاركوا القدماء فيها ولكنهم زادوا فيها عليهم ، ومن هذه المعانى ما قاله النابغة بذكر طول ليله :

كِلِينى لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصبٍ ... وليل أقاسيه بطىء الكواكبِ

تطاول حتى قلتُ ليس بمنقضٍ ... وليس الذى يرعى النجومَ بآيب

وقال أبو الطيب فى وزنه ورويه :

أعيدوا صباحى فهو عند الكواعب ... وردُّوا رقادى فهو لحظُ الحبائبِ

فإن نهارى ليلةٌ مُدْلَهِمَّةٌ ... على مقلةٍ من فقدكم فى غياهب

فأنت ترى ما فيه من الزيادة وحسن المقصد ، على أن بيتى النابغة عندهم فى غاية الجودة

وأما ما انفرد به المحدثون فمثل قول بشار :

ياقوم أذنى لبعض الحىِّ عاشقة ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا بمن لا ترى تهذى فقلتُ لهم ... الأذن كالعين توفى القلبَ ماكانا

وكقول أبى نواس وقد ذكر المبرد أنه لم يُسبق إليه :

أيُّها الرائحان باللوم لوما ... لا أذوقُ المنامَ إلا شَمِيما

نالنى بالملام فيها إمامُ ... لا أرى لى خلافَه مستقيما

فاصرفاها إلى سوايَ فإنى ... لستُ إلا على الحديث نديما

كَبْرُ حظى منها إذاهى دارت ... أن أراها أو أن أشم النسيما

فكأنّى وما أزيّن منها ... قَعَدِىٌّ يزيّن التحكيما

كَلَّ عن حمله السلاحَ الى الحرب فأوصى المُطيقَ ألاَّ يقيما

# علوم البلاغة

ادراك الجاهليين بعض مسائل البلاغة

ليس من البعيد أن يكون العرب فى الجاهلية قد عرفوا بعض مسائل البلاغة والفصاحة ، ومما يروى من ذلك[١] أن النابغة الذبيانى كان تضرب له قبة حمراء بسوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، فأنشده الأعشى ميمون بن قيس أبو بصير ، ثم أنشده حسان بن ثابت الأنصارى :

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يلمعن في الضحى ... وأسيافنا يقطُرنَ من نجدةٍ دَما

ولدنا بنى العنقاء وابنى مُحَرِّقٍ[٢] ... فأكرِمْ بنا خالا وأكرم بنا ابْنما

فقال له النابغة : أنت شاعر ولكنك أقللت جفانك وأسيافك ، وفخرتَ بمن ولدتَ ولم تفخر بمن ولدك . وإنما قال له أقللت جفانك وأسيافك لأن الجفنات لأدنى العدد والكثير جفان ، وكذلك أسياف لأدنى العدد والكثير سيوف . وإنما قال له فخرت بمن ولدت لأنه ترك الفخر بالآباء وفخر بمن ولد نساؤه ، وقد احترس من مثل هذا الزلل رجل من كلب فقال يذكر ولادتهم لمصعب بن الزبير وغيره ممن ولده نساؤهم :

وعبدَ العزيز قد ولدنا ومُصْعَباً ... وكلبٌ أب للصالحين وَلودُ

فانه لما فخر بمن ولده نساؤهم فضل رجالهم ، وأخبر أنهم يلدون الفاضلين ، وجمع ذلك فى بيت واحد فأحسن وأجاد

تدوين الجاحظ فيها

وأول من تصدى للكتابة فى هذه المسائل بعد الاسلام أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ فقد أشار فى كتابه ( البيان والتبيين ) إلى بعض مسائل من هذه المسائل[٣] ويمكن ترتيب ما جاء فى هذا الكتاب غير مرتب من ذلك فى أربعة فصول قصار :

---

(١) الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء ص ٦٠ « المطبعة السلفية »

(٢) العنقاء لقب ثعلبة بن عمرو لقب به لطول عنقه ، ومحرق هو الحارث بن عمرو ملك الشام

(٣) مقدمة نقد النثر

(١) الكلام على صحة مخارج الحروف ، ثم على العيوب التى سببها اللسان أو الاسنان أو ماقد يصيب الفم من التشوه

(٢) الكلام على سلامة اللغة ، والصلة بين الألفاظ بعضها وبعض ، والعيوب الناشئة من تنافر الحروف تنافرا يمجه السمع

(٣) الكلام على الجملة والعلاقة بين المعنى واللفظ ، ثم على الوضوح والايجاز والاطناب ، والملاءمة بين الخطبة والسامعين لها ، والملاءمة بين الخطبة وموضوعها

(٤) الكلام على هيئة الخطيب وإشاراته

تدوين ابن المعتز

وقد حذا حذو الجاحظ فى ذلك عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ وقدامة ابن جعفر المتوفى سنة ٣١٠ هـ وألف الأول فى هذه المسائل كتابا سماه (البديع) ذكر فيه سبعة عشر نوعا من فنون البديع ، منها الاستعارة والكناية والتورية والتجنيس والسجع إلى غير ذلك ، وقال : ماجمع قبلى فنون البديع أحد ، ولا سبقنى الى تأليفه مؤلف ، ومن رأى أن يقتصر على ما اخترنا فليفعل ، ومن رأى اضافة شىء من المحاسن اليه فله اختياره . وقد نازعه أبو هلال العسكرى[1] فى هذه الدعوى ، وذكر أن القدماء كانوا يعرفون هذه الفنون أيضا

تدوين قدامة

وقد ذكر قدامة فى كتابه (نقد قدامة) وهو فى نقد الشعر ثلاثين نوعا من البديع ، فزاد على ابن المعتز ثلاثة عشر نوعا ، وقد أشار فى خطبة كتابه (نقد النثر) الى أن سبب وضعه له ماشاهده من النقص فى كتاب (البيان والتبيين) وأن الجاحظ انما ذكر فيه أخبارا منتخلة ، وخطبا منتخبة ولم يأت فيه بوصف البيان ، ولا أتى على اقسامه فى هذا اللسان ، وكان بهذا غير مستحق لهذا الاسم الذى نسب اليه

---

(١) كتاب الصناعتين ص ٢٠٤

تدوين عبد القاهر

ثم جاء عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ [1] فسلك فى ذلك طريقا غير الذى سلكه من كان قبله ، إذ لم تكن مباحثهم فيه جارية مجرى البحث العلمى ، والنظر الفنى ، بل كانوا على الغالب يتناولون هذه المسائل على اعتبار أنها أبواب ذات شأن كبير من أبواب علم الأدب ، ولا يعنون فيها بشرح تعريف خفى ، ولا بتحقيق مسألة مضطربة ، فعنى هو فى كتابيه ( أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز ) بذلك كله ، وأملى فيه من القواعد ماشاء الله أن يملى ، وأحكم بيانها بضرب الامثلة والشواهد على نحو ما كان يفعل من كتب فى ذلك قبله ، وكان بهذا أول من وضع أسس ( الطريقة التقريرية ) في تدوين هذه المسائل ، فصارت بها أقرب إلى الفلسفة منها الى الأدب

وكانت هذه المسائل الى هذا الزمن تسمى تارة علم البيان ، وتارة علم البديع ، وتنظر كلها نظرة واحدة بدون فرق بين مايرجع منها الى النظم والتأليف ، وما يرجع منها الى وضوح الدلالة وخفائها ، وما يرجع منها الى المحسنات البديعية التى تلى مرتبة ذلك فى البلاغة والفصاحة ، فكانت كلها علما واحدا متحد الموضوع والغاية ، ويرجع الأمر فيه الى البحث فى أسرار البلاغة والفصاحة

تدوين السكاكى

ثم جاء أبو يعقوب السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ [2] فرتب هذه المسائل وبوبها ، وأفرد مايتعلق منها بنظم الألفاظ في علم سماه ( علم المعانى ) وأفرد مايتعلق منها بوضوح الدلالة وخفائها فى علم سماه ( علم البيان ) وجعل الوجوه التى تقصد لتحسين الكلام ذيلا لهذين العلمين ، وهى التى خصت بعد ذلك باسم ( علم البديع ) وقد استعان على ذلك بما كان له من واسع الاطلاع على علوم المنطق والفلسفة ، ولكن ذلك جعله يجرى فى تلك ( الطريقة التقريرية ) بأكثر مما جرى فيها عبد القاهر ، ويغضى عما كان يعنى به عبد القاهر من الاكثار من

---

(١) أمالى الشيخ على عبد الرازق فى علم البيان وتاريخه ص ٢٢

(٢) علوم البلاغة ص ٩ « المطبعة الحديثة »

محاولته تطبيق أساليب العرب على أساليب اليونان

ضرب الأمثلة والشواهد ، إذ كان همه فى الأكثر الى تطبيق أساليب العرب على علوم اليونان واصطلاحاتهم ، فبعد ذلك بهذه العلوم عن غايتها ، وأبعد ثمرتها عن طالبيها ، وقد حاول الخطيب فى كتابه ( الايضاح ) أن يجمع فيه بين طريقتى عبد القاهر والسكاكى ، فوصل فى ذلك الى بعض غايته ولم يصل الى ما يجب فى ذلك كله

انكار ابن الاثير هذه المحاولة

وبينا كان السكاكى يحاول تطبيق أساليب العرب على علوم اليونان واصطلاحاتهم كان ابن الاثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ يحارب في كتابه ( المثل السائر ) هذه المحاولة ويجرى فيه على سنن عبد القاهر ومن كان قبله ، [١] ويرى أن الشعر والخطابة كانا للعرب بالطبع والفطرة ، ولم تكن العرب تعرف شيئا من المعانى الخطابية التى كان حكماء اليونان أول من تكلم فيها ، وحصر أصولها ، وقد ذكر أنه وقف على ماجاء منها فى كتاب ( الشفاء ) لأبى على بن سينا فاستجهله ، لأنه طول فيه وعرض كانه يخاطب بعض اليونان ، وكل الذى ذكره لغو لايستفيد به صاحب الكلام العربى شيئا ، ثم مع هذا جميعه فان معول القوم فيما يذكر من الكلام الخطابى أنه يورد على مقدمتين ونتيجة ، وهذا مما لايخطر ببال عربى فيما يصوغه من شعر أو كلام مسجوع ، ولو أنه فكر أولا فى المقدمتين والنتيجة ثم أتى بنظم أو نثر بعد ذلك لما أتى بشىء ينتفع به ، ولطال الخطب عليه ، على أن اليونان أنفسهم لما نظموا مانظموه من أشعارهم لم ينظموه فى وقت نظمه وعندهم فكر فى مقدمتين ولا نتيجة ، وانما هذه أوضاع توضع ويطول بها مصنفات كتبهم فى الخطابة والشعر ، وهى كما يقال قعاقع ليس لها طائل

تدوين المتأخرين

ولكن القوم بعد السكاكى وابن الأثير آثروا طريقة الأول على طريقة الثانى وجروا فى الطريقة التقريرية الى آخر حدودها ، واهملوا فى هذه العلوم ايراد الأمثلة والشواهد التى كانت تورد فيها ، ففقدت بهذا كل صفة أدبية لها ، بل صارت فى البيان العربى أداة فساد لا أداة إصلاح

---

(١) المثل السائر ص ١٢٠

# علم المعانى

تعريف الخطيب

عرف الخطيب علم المعانى بأنه علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال ، والمراد بأحوال اللفظ ما يشمل أحوال الجملة بطرفيها من الفصل والوصل والايجاز والاطناب والمساواة ، وما يشمل أحوال كل من طرفيها كالذكر والحذف والتقديم والتأخير وغيرها ، وما يشمل أحوال الاسناد كالتأكيد والقصر وغيرها ، وقد خرج بذلك علم البديع لأنه يرجع الى تلك المحسنات السابقة ، وكذا علم البيان لأن أحوال اللفظ الذى تذكر فيه من المجاز والكناية وغيرهما لا تذكر فيه لبيان ما يقتضيه الحال منها ، وإنما تذكر فيه لبيان ما يحترز به عن التعقيد المعنوى فيها ، وقد فرق بعضهم بين علم المعانى وعلم البيان بأن علم المعانى يتعلق بالأمور اللفظية من الذكر والحذف ونحوهما ، وعلم البيان يتعلق بالأمور المعنوية من التشبيه والمجاز وغيرهما ، أما علم البديع فيتعلق بالأمرين معا على ما سيأتى فيه

الفرق بين موضوعات العلوم الثلاثة

وقد يأتى فيما يتعلق به علم البيان اعتبار المطابقة لمقتضى الحال ، ولكن اعتبار ذلك فيه لا يرجع الى جهات مضبوطة يصح بها ذكره فى علم المعانى ، ومن ذلك قول الأخطل فى مدح عبد الملك بن مروان :

وقد جعل الله الخلافة منهمُ ... لِأَبْلَجَ لاعارِى الخِوانِ ولا جَدْبِ

فان هذه كناية عن الكرم مقبولة فى ذاتها ، ولكن مثل هذا لا يمدح به الملوك

وكذلك قول كُثَيِّر فى مدح عبد العزيز بن مروان :

وما زالتْ رُقاكَ تسُلُّ ضِغْنِى ... وتُخرج من مكامنها ضِبابى
ويَرْقينى لك الراقون حتّى ... أجابتْ حيَّةٌ تحت التراب

وإنما تمدح الملوك بمثل قول محمد بن وُهيب فى مدح المعتصم :

له همٌ لا منتهى لكبارها ... وهمتهُ الصغرى أجلُّ من الدهرِ
له راحةٌ لو أن معشار جودها ... على البرِّ كان البرُّ أندى من البحر

ومن ذلك فى التشبيه قول عبيد الله بن قيس الرقيات فى مدح عبد الملك ابن مروان :

يعتدل التاجُ فوق مَفْرِقِهِ   على جبين كأنه الذهبُ

فانه لما سمع منه ذلك قال : أما لمصعب بن الزبير فتقول :

إنما مُصْعَبٌ شهابٌ من الله   ـهِ تجلّتْ عن وجهه الظلماء

وأما لى فتقول : على جبين كأنه الذهب !

تعريف ثان لعلم المعانى

وقد عرف بعضهم علم المعانى بأنه علم يبحث فيه عن أحوال التراكيب العربية من حيث النكات والمزايا بعد فهم المعانى الأصلية من علم النحو، وقد فرق ابن الأثير (١) بين نظر النحوى فى الألفاظ ونظر صاحب علم البيان ( يريد به ما يشمل العلوم الثلاثة ) بأن موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة ، وصاحبه يسأل عن أحوالها اللفظية والمعنوية ، وهو والنحوى يشتركان فى أن النحوى ينظر فى دلالة الألفاظ على المعانى من جهة الوضع ، وتلك دلالة عامة، وصاحب علم البيان ينظر فى فضيلة تلك الدلالة ، وهى دلالة خاصة ، والمراد بها أن تكون على هيئة مخصوصة من الحسن ، وذلك أمر وراء النحو والاعراب ، وقد أخذت أقسام النحو من واضعها بالتقليد حتى لو عكست القضية فيها بنصب الفاعل ورفع المفعول ونحو ذلك لما كان العقل يأباه ، أما تلك النكات والمزايا البيانية فقد استنبطت بالنظر وقضية العقل من غير واضع اللغة ، فان كل عارف بأسرار الكلام من أى لغة كانت يعلم أن إخراج المعانى فى ألفاظ حسنة رائقة يلذها السمع ، ولا ينبو عنها الطبع ، خير من إخراجها فى ألفاظ قبيحة ينبو عنها السمع ، ولو أراد واضع اللغة خلاف ذلك لما قلدناه

الفرق بين علم المعانى وعلم النحو

غفلة السكاكى عن الفرق بينهما

وقد غفل السكاكى والخطيب عن هذا الفرق بين نظر علم المعانى فى الألفاظ ونظر علم النحو فيها ، فأدخلا كثيراً من المعانى النحوية فى مباحث علم المعانى ، وهذا كما ذكرا فى أحوال التعريف أن التعريف بالاضمار يكون لأن المقام للتكلم

---

(١) المثل السائر ص ٣ و ٢٨

أو الخطاب أو الغيبة ، كقول بشار :

أنا المُرَعَّثُ لا أخفى على أحدٍ ذَرَّتْ بِيَ الشمسُ للقاصي وللداني

وقول أمامة الخثعمية صاحبة ابن الدُّمَيْنَة :

وأنتَ الذي أخلفتني ما وعدتني وأشمتَّ بي من كان فيك يلومُ

وقول القاسم بن حنبل المُرّي :

من البيضِ الوجوهِ بني سنانٍ لو انك تستضيء بهم أضاءوا

همُ حلُّوا من الشرف المُعَلَّى ومن كرم العشيرة حيث شاءوا

فكل هذه وأشباهها معان نحوية ، وليست في شيء من وجوه الفصاحة والبلاغة ، واذا كان علم النحو ينظر في بعض ما ينظر فيه علم المعاني من الذكر والحذف والتقديم والتأخير وغير ذلك فانما ينظر فيها من جهة بيان وجوه صحتها وامتناعها ، وأما علم المعاني فانما ينظر فيها من جهة بيان الوجوه التي ترجح بعضها على بعض ، ولهذا قال عبد القاهر [1] : انه اذا كان بيناً في الشيء أنه لا يحتمل إلا الوجه الذي هو عليه فلا مزية فيه ، وإنما تكون المزية اذا احتمل وجها آخر غير الذي جاء عليه ، ثم رأيت النفس تنبو عن ذلك الوجه الآخر ، ورأيت للذي جاء عليه حسنا وقبولا يعدمهما إذا أنت تركته الى الثاني ، ومثال ذلك قوله تعالى : ( ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ) فان الكلام يحتمل تعريف الحياة ، ومن هنا جاءت مزية التنكير فيه ، وسيأتي بيان ذلك في موضعه

هذا والمعنى الأصلي عندهم هو عبارة عن مجرد ثبوت المسند للمسند إليه ، مثل قولك زيد قائم ، والمعنى الزائد عن الأصلي هو الصفة التي يقتضيها الحال زيادة عن المعنى الأصلي ، كالتأكيد عند الانكار في قولك إن زيداً قائم . ودلالة الكلام عندهم على المعنى الزائد عن الأصلي من الدلالة الالتزامية ، أو هي من مستتبعات التراكيب مثل دلالة القول على وجود قائله ، والذي أراه أن التأكيد معنى أصلي في قولك إن زيداً قائم ، لأنه مستفاد من إن بطريق الوضع ، وإنما المعنى الزائد عن

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٥٥ « مطبعة الفتوح الادبية »

الأصلى فى ذلك هو ما يلزمه من دفع الشك أو الانكار أو نحو ذلك من الأغراض التى تقصد من الكلام ولا تدخل فى المعنى الذى تدل عليه بطريق الوضع

ويمكن حصر علم المعانى فى هذه الأبواب الثلاثة :

(١) أحوال الاسناد مطلقاً خبريا أو إنشائياً

(٢) أحوال الطرفين والمتعلقات من المفعول وغيره من الفضلات

(٣) أحوال الجملة فى ذاتها بقطع النظر عن طرفيها ومتعلقاتها

# أحوال الاسناد

## ١ — التأكيد

مقامات التأكيد

روى عن ابن الأنبارى أنه قال : ركب الكندى المتفلسف إلى أبى العباس وقال له إنى لأجد فى كلام العرب حشواً ، فقال له أبو العباس فى أى موضع وجدت ذلك ؟ فقال : أجد العرب يقولون عبد الله قائم ، ثم يقولون إن عبد الله قائم ، ثم يقولون إن عبد الله لقائم ، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد . فقال أبو العباس : بل المعانى مختلفة لاختلاف الألفاظ ، فقولهم عبد الله قائم إخبار عن قيامه ، وقولهم : ان عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل . وقولهم ان عبد الله لقائم جواب عن انكار منكر قيامه فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعانى ، فما أحار المتفلسف جوابا

فلا يخلو المخاطب من أن يكون واحداً من ثلاثة :

مقام خالى الذهن

(١) خالى الذهن من الحكم ومن التردد فيه والانكار له ، فيلقى اليه الكلام بدون تأكيد ، ويسمى هذا الضرب ابتدائيا ، وهم يعدون مراعاة ذلك من البلاغة وهو عندى من الظهور بحيث يستوى فيه البليغ وغيره ، بخلاف مراعاة حالتى التردد والانكار ، فان هذا مما ينفرد به البليغ وحده ، على أنه لا مانع عندى من أن

يعد هذا الضرب فى الطرف الأسفل من طرفى البلاغة ، الا اذا اشتمل على وجوه أخرى من وجوهها الآتية فى الذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، الى غير ذلك مما يأتى فى أبوابه

تنزيل غير الخالى منزلة الخالى

وقد لا يكون المخاطب خالى الذهن من الحكم ، ولكنه ينزل منزلة الخالى منه لعدم جريه على موجب علمه به ، فيلقى اليه بدون تأكيد كما يلقى الى الجاهل ، ولا شك أن مراعاة ذلك له حظ فى البلاغة أعلى من الحالة الاولى وهذا كقول الفرزدق لهشام بن عبد الملك حينما سئل عن زين العابدين وقد التف الناس فى الطواف به فأظهر لسائله الجهل به ليصرفه عنه :

هذا ابنُ خير عبادِ الله كلهمُ    هذا التقىُّ النقىُّ الطاهرُ العَلَم
هذا ابن فاطمةٍ ان كنت جاهله    بجده انبياء الله قد خُتِموا

مقام المتردد

(٢) المتردد فى ثبوت الحكم وعدمه ، وهذا يجب تأييد الحكم له ، خصوصا اذا كان عنده ظن بخلافه ، كما اذا كان الحكم بأمر يبعد فى الظن مثله لأن العادة جرت بغيره ، وهذا كقول أبى نواس :

عليك باليأس من الناس    انَّ غنى نفسك فى الياس

ويسمى هذا الضرب طلبيا ، ومن أمثلته قوله تعالى ﴿ فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً . قال ألم أقل لكم انى أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ . وقول الشاعر :

ولقد نصحتكَ ان قبلت نصيحتى    والنصح أغلى ما يباعُ ويوهَبُ

تنزيل غير المتردد منزلة المتردد

وقد لا يكون المخاطب مترددا فى الحكم ، ولكنه ينزل منزلة المتردد اذا قدم اليه قبل الحكم ما يلوح به ، فيؤكد له الحكم أيضا لتطلعه له تطلع المتردد الطالب كقوله تعالى ﴿ ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون ﴾ وقوله ﴿ وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء ﴾ وسلوك هذه الطريقة شعبة من البلاغة فيها دقة وغموض ، ولهذا خفيت على بعض فحولة هذا الفن ، روى عن الأصمعى أنه قال : كان أبو عمرو

ابن العلاء وَخَلَفُ الأحمر يأتيان بشارا فيسلمان عليه بغاية الاعظام ثم يقولان يا أبا معاذ ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ، ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتى وقت الزوال ثم ينصرفان ، فأتياه يوما فقالا ما هذه القصيدة التى أحدثتها فى ابن قتيبة ؟ قال : هى التى بلغتكما ، قالا بلغنا أنك أكثرت فيه من الغريب . قال نعم ، ان ابن قتيبة يتباصر بالغريب فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف ، قالا فأنشدناها يا أبا معاذ ، فأنشدهما :

بَكِّرا صاحبيَّ قبل الهجيرِ      إنَّ ذاك النجاحَ فى التبكير

حتى فرغ منها ، فقال له خلف لو قلت يا أبا معاذ مكان ( ان ذاك النجاح ) ( بكرا فالنجاح ) كان أحسن فقال بشار انما بنيتها أعرابية وحشية ، فقلت ( ان ذاك النجاح ) كما يقول الأعراب البدويون ولو قلت ( بكرا فالنجاح ) كان هذا من كلام المولدين ولا يشبه ذاك الكلام ، ولا يدخل فى معنى القصيدة . فقام خلف فقبل بين عينيه . وانما كان ( بكرا فالنجاح ) من كلام المولدين لأنه ليس فيه من دقة الاشارة الى تنزيل غير المتردد منزلة المتردد ما فى الأسلوب الاول ، وانما فيه تكرير الأمر بالتبكير لتأكيده على وجه ظاهر ليس فيه دقة ذلك التأكيد ، والمولدون يؤثرون السهولة على الدقة

مقام المنكر

( ٣ ) المنكر للحكم ، وهذا يجب تأكيد الحكم له بقدر انكاره قوةً وضعفا فيؤتى له فى ذلك بمؤكد أو مؤكدين أو أكثر على حسب مايقتضيه إنكاره . وأدوات التأكيد كثيرة منها : إن ، وأن ، ولام الابتداء ، ونونا التوكيد ، والقسم ، وأما الشرطية ، وأحرف التنبيه ، وأحرف الزيادة ، وضمير الفصل ، والسين وسوف الداخلتان على فعل دال على وعد أو وعيد ، وقد التى للتحقيق ، وانما

أدوات التأكيد

ويسمى هذا الضرب إنكاريا ومنه قوله تعالى ﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القرية اذ جاءها المرسلون ، اذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا انا اليكم مرسلون ، قالوا ما أنتم الا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء

ان أنتم الا تكذبون ، قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون ﴾ وقد قال تعالى فى المرة الاولى ( انا اليكم مرسلون ) وفى الثانية ( ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون ) لأن تكذيبهم لهم فى المرة الثانية أشد من تكذيبهم لهم فى المرة الاولى

تنزيل غير المنكر منزلة المنكر

وقد لايكون المخاطب منكراً ، ولكنه ينزل منزلة المنكر إذا ظهر عليه شىء من أمارات الانكار ، فيؤكد له الحكم تأكيده للمنكر ، كقول حجل بن نَضْلَة :

جاء شقيقٌ عارضاً رمحهُ ... إنَّ بنى عمك فيهم رماحْ

هل أحدث الدهرُ لنا نكبةً ... أم هل رقت أمُّ شقيقٍ سلاحْ[1]

فان مجيئه هكذا مدلا بشجاعته دليل على إعجاب شديد منه ، واعتقاد أنه لايقوم اليه من بنى عمه أحد ، كأنهم كلهم عزل ليس مع أحد منهم رمح

تنزيل المنكر والمتردد منزلة غيرهما

وكما ينزل غير المتردد منزلة المتردد وغير المنكر منزلة المنكر ينزل المتردد والمنكر منزلة غير المتردد والمنكر اذا كان معهما ماإن تأملاه زال منهما التردد والانكار ، وهذا يدخل فيما سبق من تنزيل غير الخالى من الحكم منزلة الخالى منه ، وعليه قوله تعالى فى حق القرآن ( ألم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ) فان هذا لا يسلمه الكفار المخاطبون به ، ولكنه ترك بدون تأكيد للتنبيه على أنهم لا حق لهم فى إنكاره

ومما اجتمع فيه تنزيل غير المنكر منزلة المنكر وتنزيل المنكر منزلة غير المنكر قوله تعالى ( ثم انكم بعد ذلك لميتون . ثم انكم يوم القيامة تبعثون ) أكد إثبات الموت تأكيدين وإن كان مما لاينكر ، لتنزيل المخاطبين منزلة من يبالغ فى إنكار الموت ، لتماديهم فى الغفلة والاعراض عن العمل لما بعده ، ولهذا قيل ( ميتون ) دون تموتون ، لما سيأتى من أن الأول يفيد الثبوت ، والثانى يفيد التجدد . ثم أكد إثبات البعث تأكيداً واحداً مع أنهم يبالغون فى إنكاره بخلاف الموت ، لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديراً بألا ينكر ، بل إما أن يعترف به أو يتردد

(١) شقيق ابن عمه ، وعرضه رمحه أن يجعله على فخذيه بحيث يكون عرضه جهة الاعداء ، ورقت من الرقية فجعلته لا يقطع شيئا

فيه ، فنزل المخاطبون المنكرون له منزلة المترددين ، تنبيها لهم على ظهور أدلته ، وحثا على النظر فيها ؛ ولهذا جاء فيه ( تبعثون ) على الأصل ، وهذا من تنزيل المنكر منزلة المتردد ، وهو قليل نادر والغالب تنزيله منزلة الخالى الذهن من الحكم

مقامات أخرى للتأكيد

وللتأكيد مقامات أخرى غير تلك المقامات ، منها الاعتناء بشأن الحكم والاهتمام به ، مثل قولهم ( إن البلاء موكل بالمنطق ) ( إن غداً لناظره قريب ) ( انما هو الفجر أو البحر[1] ) ( ان المناكح خيرها الأبكار[2] ) ولهذا حسن استعمال ضمير الشأن مع إن مثل قوله تعالى ( إنه من يتق ويصبر ) ( انه لايفلح الظالمون ) لأن الغرض منه الاهتمام بشأن الحكم ، وهى أدخل فيه

ومنها بيان صدق الرغبة فى الحكم وقصد رواجه ، مثل قوله تعالى ( واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم انما نحن مستهزئون ) فلم يؤكدوا فيما خاطبوا به المؤمنين لأنه لا يروج منهم عندهم ، وأكدوا فيما خاطبوا به اخوانهم لصدق رغبتهم فيهم ، ولأنه رائج عنهم ، متقبل منهم

ومنها التنبيه على استبعاد الحكم عند المتكلم وأنه كان يظن خلافه ، مثل قوله تعالى حكاية عن أم مريم ( رب إنى وضعتها أنثى ) وقوله ( رب إن قومى كذبون )

ومنها ربط الجملة بما قبلها مثل قول بشار :

بكرا صاحبىَّ قبل الهجير ... إن ذاك النجاح فى التبكير

وكقول بعض الأعراب :

فغنها وَهْىَ لك الفداء ... إن غناء الإبل الحداء

ولهذا يصح أن تقع الفاء فى ذلك موقع ان ، ولكنه لا يكون للكلام معها من الحسن مثل الربط بان ، ولا يوجد له من الالفة مثل الذى كان له

ومنها تهيئة النكرة لصحة الاخبار عنها . فاذا كانت موصوفة كانت مع إن

---

(١) أى ان انتظرت حتى يضىء لك الفجر الطريق أبصرت قدرك وان خبطت الظلماء وركبت العشواء هجما بك على المكروه . وهو مثل يضرب فى الحوادث التى لا امتناع منها

(٢) جمع منكوحة وحقه مناكيح فحذفت الياء

أحسن ، كقول الشاعر :

إن دهراً يلُفُّ شملى بسُعْدَى لزمان يَهمُّ بالاحسان

ومنها اغناؤه عن الخبر فى بعض المواضع ، وهذا كما فى قول الأعشى :

إن محلاً وإن مُرْتحلاً وإن فى السَّفْر إذ مَضوْا مَهلاً(١)

أى إن لنا محلا فى الدنيا ، وإن لنا مرتحلا عنها الى الآخرة ، وهـذه النكتة والتى قبلها نكتتان نحويتان أكثر منهما بلاغيتين

## ٢ — القصر

القصر باب عظيم من أبواب البـلاغة ، وهو ضرب من الايجاز والتأكيد فى اللغة ، فاذا نظرنا الى قول العباس بن الأحنف : مزايا القصر

أنا لم أرْزَقْ مودتكم إنما للعبد ما رُزِقا

وجدنا قوله ( انما للعبد ما رزقا ) جملة واحدة تفيد معنى جملتين ، إحداهما مثبتة ( للعبد ما رزقا ) والثانية منفية ( ليس للعبد ما لم يرزقه ) وكذلك اذا نظرنا الى القصر فى قول عمرو بن كُلثوم :

لنا الدنيـا ومن أضحى عليها ونَبْطُشُ حين نبطش قادرينا

وجدنا قوله ( لنا الدنيا ) فى معنى هاتين الجملتين ( الدنيا لنا ) ( الدنيا ليست لغيرنا ) وقد يصرح فى القصر بالنفى والاثبات ، مثل قول دُرَيْدِ بن الصِّمَّة :

وما أنا إلا من غَزِيَّةَ إن غوَتْ غَوَيْتُ وإن تُرْشَدْ غزية أُرْشَدِ

ولـكنه على كل حال يكون أوجز من هاتين الجملتين التامتين ، وهذا الايجاز من أهم مزايا القصر ، ولعل هذا فيه من خصائص اللغة العربية ، ومن مزايا القصر أيضا أنه يقصد منه تمكين الـكلام وتقريره فى الذهن ، وسبيله فى هـذا سبيل التأكيد فيما سبق ، ومن ذلك قول لبيد بن ربيعة :

(١) محلا ومرتحلا مصدران ميميان بمعنى الحلول والارتحال والسفر المسافرون والمراد بهم الموتى . والمهل الامهال وطول الغيبة

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

**تعريف القصر**

ولا بأس بعد هذا أن نذكر كلمة فى تعريف القصر وأقسامه ، فالقصر فى اللغ
الحبس كما قال تعالى : ﴿ حور مقصورات فى الخيام ﴾ وفى اصطلاح علماء المعاني
تخصيص شىء بشىء بطريق مخصوص ، والشىء الأول هو المقصور . والشىء الثاني
هو المقصور عليه ، والطريق المخصوص هو أدواته الموضوعة له . وللقصر طرق كثير
أشهرها أربعة : العطف بلا أو بل أو لكن ، والاستثناء من النفى ، وأنما ، والتقديم

**طرق القصر**

والعطف أقوى هذه الطرق فى الدلالة على القصر ، للتصريح فيه بالاثبات والنفى
ويليه فى ذلك الاستثناء من النفى ، ثم انما ، ثم التقديم ، ودلالته على القصر بالذوق
والنظر فى سر التقديم حتى يفهم بالقرائن الحالية أنه للتخصيص ونفى الحكم عن غي
المذكور فيه . أما دلالة الثلاثة قبله على القصر فبالوضع لا بالذوق (١)

**القصر الحقيقى والاضافى**

وينقسم القصر الى حقيقى واضافى ، والقصر الحقيقى هو ما كان التخصيص في
بحسب الحقيقة والواقع مثل قوله تعالى ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شى
قدير ﴾ فالملك مختص بيده فى الحقيقة والواقع ، ولا يتعداه الى شىء أصلا ، والقص
الاضافى هو ما كان التخصيص فيه بحسب الاضافة الى شىء معين ، لا بالاضافة إل
جميع ما عدا المذكور ، وهذا مثل قول الشاعر :

إنما الدنيا هِباتٌ ... وعوارٍ مُسْتَرَدَّه
شِدَّةٌ بعد رخاء ... ورخاء بعد شِدَّه

فالمراد انما الدنيا هبات وعوار لاحال يبقى ويدوم ، وتخصيص الدنيا بالهبا
انما هو بالاضافة الى ذلك فقط ، وإلا فانها تتجاوز الهبات الى ماعداهامن كو
حلوة أو مرة أو غير ذلك

**نقد العناية بأقسام القصر**

ولا يكتفى القوم هنا بتقسيم القصر الى هذين القسمين ، بل يجرون فى تقسي
باعتبارات مختلفة الى أن يصل بهم ذلك الى التعقيد والاملال ، فيقسمونه باعتبا

---

(١) ومن غريب أمر السكاكي والخطيب أنهما بعد هذا يحاولان اثبات دلالة الاستثناء م
النفي وانما على القصر بأدلة تكلفاها جريا وراء نزعتهما المنطقية

المقصور الى قصر موصوف على صفة وقصر صفة على موصوف . وباعتبار حال المخاطب به الى قصر إفراد ، وقصر قلب ، وقصر تعيين ، وقصر الافراد عندهم يكون للرد على مخاطب يعتقد الشركة فى حكم بين شيئين أو أكثر فيقصره المتكلم على أحدها ، وقصر القلب يكون اذا كان المخاطب يعتقد عكس الحكم ، وقصر التعيين يكون اذا كان المخاطب مترددا فيه . ولا شك أن علم البلاغة لا يستفيد شيئاً من هذه الأقسام التى أشرنا الى بعضها وأعرضنا عن بعضها الآخر حتى لا نشوه علم البلاغة به . وإنما جرى المتأخرون فى ذلك وراء السكاكى ونزعته المنطقية ، وشغفه باستنباط القواعد واستقراء الجزئيات المندرجة في الكليات

القصر الحقيقى والادعائى

والقصر يكون حقيقياً لا ادعاء فيه ، ويكون ادعائياً مبنيا على الادعاء والمبالغة والقصر الادعائى مقبول فى مقام المدح والفخر وما اليهما ، مثل قوله تعالى « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » ومثل قول الشاعر :

هل الجودُ إلا أن تجود بأنْفُسٍ　　على كلِّ ماضى الشَّفرتين صَقيلِ

وقول أبى تمام :

نَقّـِل فؤادك حيث شئتَ من الهوى　　ما الحبُّ إلا للحبيب الأول

وقول الخنساء :

ترتعُ ما رتعتْ حتى اذا ادّكرتْ[1]　　فانما هى إقبالٌ وإدبارُ

القصر بالعطف

والقصر بالعطف يكون ببل بعد النفى مثل قول الشاعر :

ليس اليتيمُ الذى قد مات والدُهُ　　بل اليتيم يتيم العلم والأدب

ويكون بلا مثل قول الشاعر :

وللفتى من ماله ما قدّمتْ　　يداه قبل موته لا ما اقتنى

ويكون بلكن مثل قول الشاعر :

---

(١) الضمير للناقة ، وادكرت ذكرت

إن الجديدين فى طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناسُ

وتحمل فى هذا بل التى للاضراب لا العطف ولكن التى للاستدراك لا العطف على بل ولكن العاطفتين ، كما ذهب اليه ابن يعقوب والسبكى[1] ، وإنما لم تفد بل القصر بعد الاثبات ، لأنها فيه تجعل ما قبلها فى حكم المسكوت عنه فقط

والأصل فى القصر بالعطف أن يدل فيه على المثبت والمنفى بالنص ، فلا يترك ذلك إلا كراهة الاطناب فى مقام الاختصار ، كما اذا قيل زيد يعلم النحو والتصريف والعروض والأدب . فتقول : زيد يعلم النحو لا غير ، وفى معناه ليس إلا ، وأما القصر بالاستثناء وبانما وبالتقديم فالأصل فيه أن يدل بالنص على المثبت دون المنفى ، وقد يجىء فيها على خلاف الأصل ، فيقال فى التقديم ما أنا قلت هذا بالنص على المنفى دون المثبت ، ويقال فى الاستثناء ما قام القوم إلا زيدا ، بالنص على المثبت والمنفى معا ، وإنما كان هذا خلاف الأصل لأن الاستثناء المفرغ هو الأصل فى القصر

القصر بالاستثناء من النفى

والقصر بالاستثناء من النفى يكون بأدوات الاستثناء جميعها مثل قوله تعالى : « قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا » ومثل قول النابغة الذبيانى :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفَهُمْ بهن فلول من قراعِ الكتائب

وقد ذهب السبكى[2] الى أن الاستثناء من الاثبات يفيد القصر أيضا ، لأن قولك قام القوم إلا زيدا يفيد قصر عدم القيام على زيد دون القوم ، وذهب الجمهور إلى أن الاستثناء فى هذا ليس بقصر ، وانما هو قيد مصحح للحكم ، فكأنك فى هذا المثال قلت : جاء القوم المغايرون لزيد ، فالمقصود فيه بالحكم القوم فقط

القصر بانما

والقصر بانما يكون فيها مع كسر همزتها وفتحها وقد اجتمعا فى قوله تعالى : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه

---

(١) مواهب الفتاح ص ١٨٦ وعروس الافراح ص ١٨٧ ج ٢ من شروح التلخيص

(٢) عروس الافراح ص ١٩١ ج ٢ من شروح التلخيص

وويل للمشركين » فالمعنى فى الأول على قصره على البشرية ، والمعنى فى الثانى على قصر الألوهية على التوحيد ، وقيل إن المفتوحة لا تفيد القصر ، ومن القصر بإنما المكسورة قول الشاعر :

وما لامرىء طولُ الخلود وإنما  يخلّده طولُ الثناء فيَخلدُ

القصر بالتقدم

والقصر بالتقديم يكون بتقديم المسند اليه فى مثل قول المتنبى :

وما أنا أسقمتُ جسمى به  ولا أنا أضرمت في القلب نارَا

وبتقديم المسند على المسند اليه فى مثل قول الشاعر :

لك القلم الأعلى الذى بشَباتِه[1]  يصاب من الأمر الكُلَى والمفاصِل

وبتقديم بعض معمولات الفعل عليه فى مثل قول الشاعر :

إلى الله أشكو لا الى الناس إننى  أرى الأرضَ تبقى والأخلاء تذهبُ

وقد ذهب ابن الأثير[2] الى أن تقديم بعض معمولات الفعل على بعض كتقديم الحال على صاحبه يفيد القصر أيضا ، مثل جاء راكبا زيد ، بخلاف جاء زيد راكبا ، إذ يحتمل أن يكون ضاحكا أو ماشيا أو غيرهما ، وقد خالفه الجمهور فى ذلك

مقامات القصر

وهذا هو صميم الفن فى أمر القصر ، بخلاف تلك الأقسام التى أعرضنا عن ذكرها فيما سبق ، وبخلاف ما يعنون به ويطيلون فيه من بيان موقع كل من المقصور والمقصور عليه فى أدوات القصر الأربعة ، وبيان جواز تقديم المقصور عليه على أداة الاستثناء وعدم جوازه ، فهذه أحكام لغوية نحوية لا يصح ذكرها فى هذا الفن ، ولا العناية بها فيه ، وقد يكفينا منها بيان أن المقصور عليه فى العطف ببل أو لكن هو ما بعدهما ، وفى العطف بلا هو ما قبلها ، وفى الاستثناء هو ما بعد إلا أو غيرها من أدواته ، وفى إنما هو المؤخر ، وفى التقديم هو المقدم

مقام الاستثناء من النفى

والأصل فى القصر بالاستثناء من النفى أن يكون فيما يجهله المخاطب وينكره أو شك فيه ، كقوله تعالى ( وما من إله إلا الله ) فانه أمر ينكره المخاطبون به من

---

(١) شباة كل شىء حده (٢) المثل السائر ص ١٨٠

المشركين ، وقد يكون فى أمر معلوم المخاطب ولكنه ينزل منزلة المجهول عنده لاعتبار مناسب ، كقوله تعالى « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل » فالمعنى على أنه مقصور على الرسالة لا يتعداها إلى التبرى من الهلاك ، وقد نزل فى ذلك استعظامهم هلاكه منزلة إنكارهم إياه ، و الاعتبار المناسب فيه هو الاشعار بعظم هذا الأمر فى نفوسهم ، وشدة حرصهم على بقائه عندهم ، ومن ذلك قوله تعالى « وما أنت بمسمع من فى القبور إن أنت إلا نذير » فانه ﷺ كان لشدة حرصه على هداية الناس يكرر دعوة الممتنعين منهم ، ولا يرجع عنها ، فكان فى معرض من ظن أنه يملك مع صفة الانذار إيجاد الشىء فيما يمتنع قبوله إياه ، ومن ذلك أيضا قوله تعالى « قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ، قالت لهم رسلهم إن نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بأذن الله وعلى الله فليتوكل المتوكلون » ففى القصر الأول نزل الكفار الرسل منزلة من ينكر أنه بشر لاعتقادهم أن الرسول لا يكون بشرا ، مع إصرار الرسل على دعوى الرسالة ، وفى القصر الثانى جارى الرسل الكفار فى كلامهم لتبكيتهم و إلزامهم وإفحامهم ، فان من عادة من ادعى عليه خصمه الخلاف فى أمر هو لا يخالف فيه أن يعيد كلامه على وجهه ، ثم يبين له أنه لا يلزمه مع ذلك ما يظن أنه يلزمه ، فكأن الرسل قالوا لهم ، إن ما قلتم من أنا بشر مثلكم هو كما قلتم لا ننكره ، ولكن ذلك لا يمنع أن يمن الله علينا برسالته ، فالقصر فى كلام الرسل صورى فقط يقصد منه المشاكلة اللفظية ، لتكون أقوى فى المجاراة ، ولا يريد منه الرسل إلا أصل الاثبات على سبيل التجريد ، وفى القصر الثالث جرى الاستثناء من النفى فيه على أصله ، لأنه فى أمر يجهله المخاطب وينكره

مقام انما والأصل فى القصر بانما أن يكون فيما شأنه ألا يجهله المخاطب كقول أبى الطيب يخاطب كافورا :

إنما أنت والدٌ والأبُ القا   طعُ أحنى من واصل الاولاد

يعنى أن كافورا لابن الاخشيد مولاه بمنزلة الوالد ، ومن شأن هذا ألا يجهله كافور ، ولكنه أراد أن يذكره منه بالأمر المعلوم ليبنى عليه استدعاء ما يوجبه ، والمعنى أن الأب القاطع للاولاد أحنى عليهم من الاولاد الواصلين للآباء ، لأن حنو الوالد على ولده ، أشد من حنو الولد على والده

وقد يكون ما تستعمل فيه إنما مجهولا للمخاطب ، ولكنه ينزل منزلة المعلوم لادعاء ظهوره ، وهذا نحو قول عبيد الله بن قيس الرُّقيَّات فى مُصْعَب بن الزُّبير :

إنما مصعبٌ شهابٌ من الله   ه تجلت عن وجهه الظلماء

ادعى أن كون مصعب كذلك جلى معلوم لكل أحد ، على عادة الشعراء إذا مدحوا أن يدعوا فى كل ما يصفون به ممدوحيهم الجلاء ، ومثله قول شوقى :

وإنما الأمم الاخلاق ما بقيتْ   فان هُمُ ذهبتْ أخلاقهم ذهبوا

وقول الآخر :

وإنما المرء حديثٌ بعدهُ   فكن حديثاً حسناً لمن وعى

ومن هذا أيضا قوله تعالى « واذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون » ادعوا أن كونهم مصلحين ظاهر جلى ، ولهذا أكد فى الرد عليهم بقوله ( ألا إنهم هم المفسدون ولـكن لا يشعرون ) فلم يقتصر فيه على تأكيد واحد ، بل جعل الجملة اسمية ، وعرف الخبر باللام ، ووسط ضمير الفصل ، وصدر بحرف التنبيه ثم بان

وإذا استقريت مواقع إنما وُجِدَ أنها أحسن ما تكون موقعا إذا كان الغرض بها التعريض بأمر هو مقتضى معنى الـكلام بعدها ، لأنه إذا كان شأن الحكم الذى تستعمل فيه أن يكون معلوما للمخاطب أو منزلا منزلة المعلوم ، فانه لا يكون مهما إفادته للمخاطب ، وإنما يكون المهم معنى آخر وراءه يلوح به اليه ، لأنه جاهل به ، مصر على إنكاره ، كما ترى فى قوله تعالى « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين

لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب » فانه تعريض بذم الكفار وأنهم من فرط العناد وغلبة الهوى عليهم فى حكم من ليس بذى عقل ، فمن يطمع منهم أن ينظروا ويتذكروا كمن يطمع فى ذلك من غير أولى الألباب ، وكما فى قول الشاعر :

ما أنت بالسببِ الضعيف وإنما نُجْحُ الأمور بقوة الأسباب
فاليومَ حاجتُنا اليك وإنما يُدْعى الطبيبُ لساعة الاوصاب

يقول فى البيت الأول إنه ينبغى أن أنجح فى أمرى حين جعلتك السبب اليه ، وفى الثانى إنا قد طلبنا الأمر من جهته حين استعنا بك فيما عرض لنا من الحاجة وعولنا على فضلك . كما أن من عول على الطبيب فيما يعرض له من السقم كان قد أصاب فى فعله

مقام العطف والتقديم

وأما القصر بالعطف والتقديم فهو كما قال صاحب الأطول [1] يأتى فيما يأتى له القصر بالاستثناء من النفى ، كما يأتى فيما يأتى له القصر بانما ، كما فى قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » وقول الشاعر :

سيذكرنى قومى اذا جَدَّ جِدُّهم وفى الليلة الظلماء يُفْتَقَدُ البدرُ

وكما فى قول بعضهم :

ليس اليتيمُ الذى قد مات والدُهُ بل اليتيم يتيم العلم والأدبِ

مع قول الآخر :

وما شاب رأسى من سنين تتابعتْ علىَّ ولكن شيبتنى الوقائعُ

واذا كان هذا مقامهما فى القصر ، فلا شك أنه فى البلاغة دون مقام القصر بالاستثناء والقصر بانما ، لما يمتازان به عليهما من هذه الفروق الدقيقة

اجتماع اداتىْ قصر

وقد يجتمع فى الكلام أداتا قصر على حكم واحد عند قصد زيادة التحقيق والتأكيد ، كما سبق فى قول الشاعر :

الى الله أشكو لا الى الناس اننى أرى الأرضَ تبقى والأخلاء تذهبُ

اجتمع فيه من أدوات القصر التقديم والعطف ، ومن ذلك قول الآخر :

---

(١) حاشية البنانى على شرح السعد ص ٢٧٢ ج ١

أما مياً لم تزده معرفة          وانما لذة ذكرناها

اجتمع فيه إنما والتقديم ، كما اجتمعا أيضا فى هذا البيت :

ألا فليمت من شاء بعدك انما          عليك من الأقدار كان حذاريا

ولا يجوز فى ذلك لغة اجتماع الاستثناء من النفى مع لا العاطفة ، لأن شرط المنفى بلا ألا يكون منفياً قبلها بغيرها ، وقد وقع فى هذا الحريرى فى قوله :

لعمرك ماالانسان إلا ابن يومه          على ماتجلى يومه لا ابن أمسه

ولا يحسن اجتماع إنما مع لا العاطفة إذا كان الحكم فى نفسه مختصاً بالمحكوم عليه ، لأنه لايكون هناك حاجة الى تأكيد القصر ، كقوله تعالى « إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون » فان كل عاقل يعلم أن الاستجابة لاتكون إلاممن يسمع[1] والسكاكى يمنع فى هذا اجتماع لا مع إنما ، ولعله هو الحق ، لأن اجتماع أداتى القصر يكون لقصد زيادة التحقيق والتأكيد ، ولا داعى الى ذلك هنا

## ٣ ــ الاسناد الأسمى والفعلى

الفرق بينهما عند عبد القاهر

إن الفرق بين الاسناد إذا كان بالاسم وبينه إذا كان بالفعل هو كما قال عبد القاهر[2] فرق لطيف تمس الحاجة فى علم البلاغة اليه ، وبيانه أن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشىء من غير أن يقتضى تجدده شيئاً بعد شىء ، وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضى تجدد المعنى المثبت به شيئا بعد شىء ، فاذا قلت زيد منطلق فقد أثبت له الانطلاق من غير أن تجعله يتجدد منه شيئا فشيئا ، وكنت فى هذا كما تقول زيد طويل وعمرو قصير ، واذا قلت زيد ينطلق فقد جعلت الانطلاق يقع منه جزءاً فجزءا ، وجعلته فى هذا بحيث يزاوله ويزجيه

مقامات الاستمرار التجددى فى الفعل

والحق أن الفعل لا يفيد الاستمرار التجددى فى كل المقامات ، ولا فى كل أنواعه الثلاثة ( الماضى والمضارع والأمر ) وانما موضوعه فى ذلك على إفادة التجدد

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٥٩   (٢) دلائل الاعجاز ص ٩٤

بمعنى حصول الشيء بعد عدمه ، ولا يفيد الاستمرار التجددى إلا اذا كان فعلا مضارعا ، ولا يكون هذا إلا فى مقامات خاصة تستدعيه ، وهى مقامات الفخر والمدح والهجاء ونحوها ، مثل قول طَرِيف بن تميم العنبرى :

أو كُلَّما وردتْ عُكَاظَ قبيلةٌ بعثوا الىَّ عريفهم يتوسَّمُ

أى يتفرس فى وجوه القوم ويتوسمها وقتاً بعد وقت لعله يهتدى الى معرفتى ونحوه قول المتنبى :

تُدَبِّرُ شرقَ الأرض والغرب كفُّهُ وليس له يوما عن الجود شاغل

فقام المدح يدل على أن تدبير الملك ديدنه فى كل وقت ، ويمنع أن يكون المراد أن ذلك يحصل منه مرة واحدة ، وكذلك قول الآخر :

نروحُ ونغدو لحاجاتنا وحاجةُ من عاش لاتنقضى

مقامات الاستمرار المتصل فى الاسم

وقد تفيد الجملة الاسمية الدوام والاستمرار فى مثل المقامات السابقة أيضا ولكن الاستمرار فى الجملة الاسمية استمرار متصل لا تجددى ، مثل قوله تعالى « وإنك لعلى خلق عظيم » ومثل قول النضر بن جُؤَيَّة :

لايألفُ الدرهمُ المضروبُ صُرَّتنا لكن يمرُّ عليها وهو منطلقُ

فهو يريد أن دراهمهم دائمة الانطلاق الى المعوزين وأرباب الحاجات وقد ساق عبد القاهر [١] هذا البيت شاهداً على ماذكره من إفادة الاسم إثبات المعنى للشيء من غير أن يقتضى تجدده شيئاً فشيئا ، ولم يعن باثبات معنى الدوام والاستمرار فيه كما عنى به غيره ، وإنى أرى أنه لو قيل فى ذلك ( ينطلق ) لأفاد من الاستمرار التجددى مايناسب مقام الفخر أيضا . لكن الاستمرار المتصل أبلغ منه كما لا يخفى

واذا كان وضع الجملة الاسمية على إفادة الثبوت ووضع الجملة الفعلية على افادة التجدد ، فان الجملة الاسمية تدل فى ذلك على معنى أوفى مما تدل عليه الجملة الفعلية

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٩٤

ولهذا ذهب بعضهم الى أن الجملة الاسمية تفيد تأكيد المعنى ، وقد تؤثر الجملة الاسمية من أجل هذا فى بعض المقامات على الجملة الفعلية ، كما سبق فى قوله تعالى « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم » وكما فى قوله تعالى « ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ » اذ أصل الأول نسلم سلاما ، وتقدير الثانى سلام عليكم كأن ابراهيم عليه السلام أراد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به ، أخذا بأدب الله تعالى فى قوله « واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها »

وكذلك قوله تعالى « قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين » أى أأحدثت عندنا تعاطى الحق فيما نسمعه منك أم اللعب وأحوال الصبا بعد مستمرة عليك ؟

وقوله تعالى « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين» أجاب قولهم ( آمنا ) بقوله ( وماهم بمؤمنين ) لاخراج ذواتهم من جنس المؤمنين مبالغة فى تكذيبهم ، ولهذا أطلق قوله ( مؤمنين ) وأكد نفيه بالباء ، ونحوه قوله تعالى « يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم »

استعمال المضارع فى مقام الماضى

وقد يستعمل الفعل المضارع فى مقام الفعل الماضى لأغراض منها قصد استحضار صورته لغرابة فيها أو نحوها ، كما فى قوله تعالى « والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور » إذ قال فتثير استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة ، وكما فى قول تأبط شرّا :

أَلا مَنْ مُبْلِغٌ فتيانَ فَهْمٍ ... بما لاقيتُ عند رَحا بِطَانِ
بأنى قد لقيتُ الغول تهوى ... بِسَهْبٍ كالصحيفة صحْصَحَانِ (1)
فقلتُ لها كِلانا نِضو أرضٍ (2) ... أخو سفر فَخَلّى لى مكانى

---

(1) السهب بفتح السين الفلاة ، والصحصحان ما استوى من الارض
(2) النضو المهزول

فشدَدْتُ شدّةَ نحوى فاهوتْ  لما كفّى بمصقول يمانِ
فاضربُهَا بلا دَهَشٍ فَخَرَّتْ  صريعاً لليدين ولِلْجِرانِ [1]

إذ قال فاضربها لذلك أيضا ، وسيأتى لذلك أغراض أخرى فى الكلام على لو من أدوات الشرط .

استعمال الماضى فى مقام المضارع

وقد يستعمل الماضى فى مقام المضارع لأغراض منها الاشارة الى تحقق وقوع الفعل ، كما فى قوله تعالى « أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون » فأتى فيه بمعنى يأتى ، ومنها الأغراض الآتيةُ فى استعمال الماضى شرطاً لان عند الكلام على التقييد بأدوات الشرط

## ٤ — أغراض الاسناد الخبرى

الاغراض الاصلية

الأصل فى الخبر أن يلقى لأحد غرضين : أولهما إفادة المخاطب حكمه ، ويسمى ذلك عندهم فائدة الخبر كقوله ﷺ ( الخيل معقود فى نواصيها الخير ) وثانيهما إفادة المخاطب أن المتكلم عالم بالحكم ، ويسمى ذلك عندهم لازم فائدة الخبر ، مثل قولك لمن يخفى زواجه عليك ( أنت تزوجت ) والأخبار التى تلقى فى أحد هذين الغرضين تقال فى مقام جهل المخاطب بفائدة الخبر أو لازم فائدته ، فتلقى على أصلها بدون زيادة شىء فيها من تأكيد ونحوه ، وهى الأخبار السائرة بين الناس فى تحاورهم وتخاطبهم

الاغراض غير الاصلية

وقد يلقى الخبر لأغراض أخرى غير هذين الغرضين تستفاد من سياق الكلام ، وذلك يكون عند علم المخاطب بهما ، فلا يكون الغرض من الخبر إفادتهما ، وإنما يكون الغرض واحدا من تلك الأغراض الأخرى ، فمنها إظهار الفرح والسرور كقول الشاعر :

---

(١) الجران فى الاصل مقدم عنق البعير من مذبحه الى منحره

هنــاء محا ذاك العزاء المقدَّمَا فمــا عَبَسَ المحزونُ حتى تبسَّمَا

ومنها إظهار الأسف والحسرة على فائت كقول الشاعر :

ذهب الذين يُعَاشُ فى أكنافهم وبَقِيتُ فى خَلَفٍ كجلد الأجربِ

ومنها إظهار الضعف والخشوع كقول الشاعر :

إلهى عبـدك العاصى أتاكا مقرًّا بالذنوب وقد عصاكا

ومنها التوبيخ كقول أُمامة الخثعمية لابن الدُّمَيْنَة :

وأنتَ الذى أخلفتنِى ماوعدتَنِى وأشمتَّ بى من كان فيك يلوم

ومنها إظهار الامتثال فى قوله تعالى « وما تلك بيمينك ياموسى ، قال هى عصاى أتوكأُ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى » فلا يقصد موسى بما قاله إلا اظهار الامتثال لربه ، وليس فى هذا اعلام بفائدة الخبر ولا بلازم فائدته ، لامتناع الجهل فى حق الله تعالى

ومنها قصد الوعظ والارشاد في نحو قوله تعالى ( كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام )

وفائدة الخبر تفهم من ذات الخبر ويدل عليها لفظه دلالة أصلية ، وما عداها من أغراضه يفهم من السياق أو نحوه ، ودلالة الخبر عليه دلالة تبعية مثل دلالة الألفاظ على المعانى غير الأصلية ، فلا توصف بأنها حقيقة ولا مجاز ولا كناية ، وقيل إن الخبر فى مثل اظهار الفرح والسرور ونحوه من الأغراض بمعنى الانشاء ، فيكون القصد منه الدعاء أو نحوه ، وقد أول في هذا قول امرأة عمران « رب انى وضعتها أنثى » بمعنى تقبل منى وهكذا

# أحوال الطرفين والمتعلقات

## ١ — الذكر

الذكر ضرب من الاطناب

ذكر الأستاذ أحمد المراغى [1] أن هذا الباب لم يتعرض له كثير من أئم
الفن ، كأبى هلال العسكرى وعبد القاهر ، وكأنهم لم يروا فيه من اللطائف والمزا
مايسيغ البحث عنه فى علوم البلاغة ، وأول من عنى بذكره السكاكى ومن حذ
من المتأخرين حذوه ، وإنى أرى فى هذا أن باب الذكر كان يدخل عند المتقدمين
فى باب الاطناب ، لأن الذكر ضرب من ضروبه

وإنما يكون الذكر باباً من أبواب البلاغة إذا وجدت قرينة تدل على المذكور
عند حذفه ، فلا يكون ذكره فى هذه الحالة واجبا ، ويكون محتاجا الى نكتة
ترجح ذكره على حذفه

مقامات الذكر

ومن مقامات الذكر زيادة الكشف والايضاح ، كما فى قوله تعالى « أولئك
على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » ذكر اسم الاشارة ثانيا للتنبيه على أنهم ك
ثبت لهم الاستئثار بالهدى ثبت لهم الاستئثار بالفلاح ، وكما فى قوله تعالى « ولئن
سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم » وقوله « وبالحق
أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيرا » ومثل هذا من باب الاظهار
فى مقام الاضمار أيضا ، ومنها بسط الكلام فى مقام يقتضى البسط ، إما لأن الاصغا
من السامع مطلوب للمتكلم ، كما فى قوله تعالى « وما تلك بيمينك ياموسى ، قال
هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى » فكان
يكفيه فى الجواب أن يقول ( عصاى ) ولكنه يكلم رب العزة ، ومن يظفر بهذ
المنزلة يكون الاستماع مطلوبا له ، ولهذا زاد في الجواب عما طلب منه . وإما لأن
المقام مقام افتخار أو نحوه ، كقول البارودى :

---

(١) علوم البلاغة: ص ٨١ « المطبعة الحديثة »

أنا مصدرُ الكلم البوادِي بين المحاضر والنوادِي
أنا فارسٌ أنا شاعرٌ في كلّ ملحمةٍ ونادى

وكقول العَرْجى أو مجنون ليلى :

بالله ياظبياتِ القاعِ قلنَ لنا ليلايَ منكنَّ أم ليلى من البشرِ

وكقول ليلى الأخيلية فى مدح الحجاج :

إذا نزل الحجَّاجُ أرضاً مريضةً تتَبَّعَ أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداءِ العُضالِ الذي بها غلامٌ إذا هزَّ القناةَ سقاها

ومنها التعريض بغباوة السامع ، كقوله تعالى « قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانو ينطقون » كان يكفيه أن يقول ﴿ بل كبيرهم ﴾ ولكنهم أغبياء لاتكفيهم القرينة السابقة ، فأعاد ذكر الفعل تعريضاً بغباوتهم

ومنها التسجيل على السامع فيما ينكره حتى لايتأتى له إنكاره ، كقول الفرزدق لهشام حين أنكر معرفة زين العابدين

هذا ابنُ خير عبادِ الله كلهمُ هذا التقىُّ النقىُّ الطاهرُ العلَمُ

ومنها المبالغة فى الرد على المخاطب إذا كان ينكر صحة مايقال له ، أو كان حاله شبيها بذلك ، ومن الأول قوله تعالى ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ ومن الثانى قوله تعالى ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ﴾

وفى هذه النكات التى ذكرناها كفاية فى ذلك ، وقد أعرضنا عن النكات النحوية التى يذكرونها هنا . لأنها لاتدخل فى هذه العلوم كما سبق بيان ذلك فى موضعه

## ٢ – الحذف

مزايا الحذف

الحذف ضرب من الايجاز كما أن الذكر ضرب من الإطناب ، وهو كما قال عبد القاهر [١] باب دقيق المسلك لطيف المأخذ ، عجيب الأمر شبيه بالسحر ، ترى به ترك الذكر والصمت عن الافادة أزيد للافادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبين ، واذا كان الذكر لا يعد من أبواب البلاغة إلا عند وجود قرينة يمكن بها الاستغناء عنه ، فان الحذف أيضا لا بد فيه من قرينة تدل على المحذوف والا كان تعمية وإلغازا ، وهو ضربان : ضرب يظهر عند الاعراب كقولهم ( أهلا وسهلا ) فان النصب يدل على ناصب محذوف ، وضرب لا يظهر بالاعراب ، وإنما يعلم مكانه بتصفح المعنى وتوقفه عليه كقولك فلان يعطي ويمنع أى كل أحد ، وهذا اذا قصد من الحذف التعميم كما سيأتى ، وللحذف فى الضرب الثانى من الحسن والأريحية مالا يوجد فى الضرب الأول

مقامات الحذف

وللحذف مقامات عامة فى الطرفين والمتعلقات ، ومقامات خاصة بالمتعلقات من المفعول به وغيره ، أما الأولى فمنها قصد الاختصار والاحتراز عن العبث لوجود القرينة ، وهى نكتة عامة فى جميع مقامات الحذف كما هو ظاهر ، ولكنها تستأثر بالحذف هنا وحدها ، كقوله تعالى « وما أدراك ماهيه ، نار حامية » أى هي نار حامية ، وقوله « يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين » أى والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك ، ويجوز أن يكون ( أحق أن يرضوه ) خبرا عنهما ، وتوحيد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله وكقولك أصغيت اليه أى أذنى ، وأغضيت عليه أي بصرى . وعليه قوله تعالى « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر اليك . الآية » أى أرني ذاتك ، وأما قوله تعالى ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم . الآية﴾ فقد قال الزمخشرى فيه : فإن قلت كل قول يقال بالفم فما معنى قوله ( ذلك قولهم بأفواههم ) قلت فيه وجهان : أحدهما أن يراد أنه

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٨٠

قول لا يعضده برهان، فما هو إلا لفظ يفوهون به فارغ من معنى تحته ، والثانى أن يراد بالقول المذهب ، كأنه قيل ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم ، لأنه لا حجة معه ولا شبهة حتى يؤثر فيها

ومنها ضيق المقام عن إطالة الكلام بسبب شعر أو توجع وتضجر ، كقول الشاعر

قال لى كيف أنتَ قلتُ عليلُ  سهر دائم وحزن طويلُ

أى أنا عليل ، وحالى سهر دائم وحزن طويل ، وكقول ضابىء البُرْجمى :

ومن يَكُ أمسى بالمدينة رَحلهُ[١]  فانى وقيَّار بها لغريبُ

أى وقيار كذلك ، ولا يصح أن يكون قيار معطوفا على محل اسم إن و (لغريب) خبر عنها ، لامتناع العطف على محل اسم إن قبل مضى خبرها ، ولا يجوز أيضا أن يكون (لغريب) خبراً عن قيار وخبر إن هو المحذوف ، لأن خبر المبتدإ الغير المنسوخ لا يقترن باللام إلا في الشذوذ

ومنها تعين المحذوف وعدم احتمال غيره حقيقة أو ادعاء ، وهذا يكثر فى مقام الفخر والمدح وغيرهما كقوله تعالى ﴿ لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ﴾ أى لينذر الكافرين ، فحذفهم لأن الانذار لا يكون إلا لهم ، وذكر المؤمنين تشريفاً لهم ، وإن كان التبشير أيضا مختصا بهم ، وكقول الشاعر :

لَسِنٌ إذا صَعِدَ المنابرَ أو نَضا  فلقاً شأى الخطباء والكتّابا[٢]

وكقول ليلى الأخيلية :

أحجّاجُ لا يُفْلَلْ سلاحك إنما الـ  ـمنايا بكفّ الله حيثُ تراها

أى لا يفلل الله سلاحك ، وهذا من حذف الفاعل وإنابة المفعول عنه ، وهو داخل فى باب الحذف أيضاً ، وهم يذكرون فى علم النحو نكاته من العلم بالفاعل أو جهله أو الخوف منه أو عليه ، ولكن موضعها الأصلى هذا العلم

ومنها صون المحذوف عن اللسان تعظيما له أو صون اللسان عنه تحقيراً له كقول

(١) الرحل المنزل والمأوى ، وقيار اسم فرسه أو غلامه (٢) نضا جر ، وشأى سبق

الأقيشر الأسدي فى ابن عم له موسر سأله فمنعه ثم لطمه على وجهه :

سريعٌ الى ابن العمِّ يلطمُ وجهه    وليس الى داعى النَّدى بسريع
حريصٌ على الدُّنيا مضيعٌ لدينه    وليس لمـا فى بيته بمُضيع

وكقول النابغة الذبيانى فى الغساسنة :

ملوكٌ وإخوان إذا ما مدحتُهم    أُحكَّمُ فى أموالهم وأُقرَّب

وكقول عائشة رضى الله عنها : كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد فما رأيت منه ولا رأى منى ، أي العورة

ومنها اتباع الاستعمال الوارد بالحذف ، كقولهم فى المثل ( رَميةٌ من غير رام ) أى هذه رمية ، فينطق به كما ورد لأن الأمثال لا تغير ، وكذلك اتباع الاستعمال الوارد على ترك نظائره ، كما فى الرفع على المدح أو الذم أو نحوهما ، فان المسند اليه لا يكاد يذكر في ذلك ، فيقولون بعد أن يذكروا الممدوح ( غلام من شأنه كذا وكذا ) أو ( فتى من شأنه كيت و كيت ) كما قال ابن عنقاء الفزاريّ يمدح عُمَيْـلةَ وقد شاطره ماله لما رآه معوزاً :

رآنى على ما بى عُمَيلةُ فاشتكى    إلى ماله حالى أسرَّ كما جَهَرْ
غلامٌ رماه الله بالخير يافعاً    له سيمياء لا يَشُقُّ على البصر

ومن ذلك في حذف المسند قول أعشى قيس :

إن مَحلاً وإن مُرْتَحلا    وإن فى السَّفْر إذ مَضَوْا مَهلا

لاطراد حذف المسند مع تكرار إن وتعداد اسمها . والحذف لاتباع الاستعمال واجب نحوى ، ولكنه يصار إليه فى أصله لنكتة بلاغية تقتضيه

ومنها المحافظة على السجع كقولهم ( من طابت سريرتُهُ ، حُمِدت سيرته ) فلو قالوا حمد الناس سيرته لفات هذا السجع ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ والضحى والليل اذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ﴾ أى قلاك ، ويجوز أن يكون فى هـذا أيضاً صونه عن التصريح بايقاع لفظ ( قلى ) عليه مبالغة في تنزيهه عنه ، وانى أرى فى عد

الحذف للسجع من علم البديع

نكتة المحافظة على السجع من نكات الحذف خلطا بين مسائل علم البديع ومسائل هذا العلم ، وإذا كانت المحافظة على السجع غير واجبة من جهة بلاغة الكلام ، فانه لا يصح ذكرها فى العلم الذى لا يبحث فيه إلا عن النكات الواجبة فيها ، ولو أنهم قالوا (من طابت سريرته ، حمد الناس سيرته) لكان كلاما بليغاً وإن فاته من ذلك السجع ما فاته ، لأن الحذف فى هذا لنكتة بديعية ، وليس لمقتضى المقام الواجب مراعاته فى البلاغة

مقامات حذف المفعول

وأما المقامات الخاصة بحذف المفعول ونحوه فمنها تنزيله منزلة اللازم حيث يكون الغرض ذكر الفعل دون متعلقه ، كقوله تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) فالمعنى هل يستوى من له علم ومن لا علم له ، وقوله : (وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا) وفى هذا المقام لا يكون للفعل مفعول مخصوص مقصود ، بخلاف غيره من المقامات الآتية

ومنها قصد توفر العناية على إثبات الفعل للفاعل دون المفعول لغرض من الأغراض ، كقول البحترى يمدح المعتز بالله ويعرض بالمستعين بالله :

شَجْوُ حساده وغيظ عداهُ ... أن يرى مبصرٌ ويسمع واعِ

فالمراد أن يرى مبصر محاسنه ، ويسمع واع أخباره ، ولكنه حذف ذلك لتوفر العناية على إثباته للفاعل ، ويوهم أن المراد أن يكون ذو رؤية وذو سمع ، لأن محاسنه وأخباره مشهورة ، فلا يقع البصر إلا عليها ، ولا يدخل فى السمع غيرها ، وكقول عمرو بن معد يكرب :

فلو أنَّ قومى أنطقتنى رماحهم ... نطقتُ ولكنَّ الرِّماح أجرَّتِ (١)

فالمراد أجرتنى ، ولكنه حذف المفعول لذلك أيضا ، فيوهم أن إجرارها كان عاماً له ولغيره

ومنها البيان بعد الابهام ليكون أوقع فى النفس ، كما فى قول البحترى :

(١) أجر فى الاصل بمعنى شق لسان الفصيل لئلا يرضع أمه والمراد هنا أنها قطعت لسانه عن مدحهم

لو شئتَ لم تُفْسِدْ سماحةَ حاتمٍ    كرماً ولم تهدم مآثرَ خالدِ

فان تقديره لو شئت ألا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها ، ولكنه حذف المفعول في الأول ، لأنه متى قال لو شئت علم السامع أن ههنا شيئا تعلقت المشيئة بوجوده أو عدمه ، فاذا صرح به بعد ذلك كان أوقع فى نفس سامعه ، و هذا الحذف مطرد فى فعل المشيئة مالم يكن فى تعلقه بمفعوله غرابة ، فاذا كان فى تعلقه به غرابة وجب ذكره ، كقول إسحاق الخُـرَيْمى يرثى حفيده :

ولو شئتُ أن أبكى دماً لبكيتُه    عليه ولكنْ ساحةُ الصبر أوسعُ

وأما قول على بن أحمد الجوهرى :

فلم يُبْقِ منى الشوقُ غيرَ تفكرى    فلو شئت أن أبكى بكيت تُفكُّراً

فليس منه لأن المراد بالأول البكاء الحقيقى ، والبكاء الحقيقى لا غرابة فيه ، وإنما ذكر لأن المراد بالثانى بكاء التفكر ، فلا يصلح تفسيراً له عند حذفه ، وقيل إنه يجوز أن يكون المعنى فلو شئت أن أبكى تفكراً بكيت تفكراً على التنازع ، ولكن المعنى الأول أبلغ

ومنها دفع أن يتوهم السامع فى أول الأمر إرادة شىء غير المراد ، كقول البحترى :

وكم ذُدْتَ عنِّي من تَحامل حادثٍ    وسَوْرةِ أيامٍ حززن الى العظمِ

أى حززن اللحم ، وإنما حذفه لئلا يتوهم السامع قبل ذكر العظم أن الحز لم يصل اليه ، ولأنها إذا وصلت الى العظم فلا بد أن تكون حزت اللحم ، فذكر العظم يغنى عن ذكره

ومنها إرادة ذكره ثانيا على وجه يتضمن إيقاع الفعل على صريح لفظه إظهارا لكمال العناية بوقوعه عليه ، كقول البحترى :

قد طلبنا فلم نجد لك فى السؤ    ددِ والمجد والمكارم مِثْلاَ

أى قد طلبنا لك مثلا ، فحذفه لأنه أراد أن يوقع نفى الوجود على صريح

لفظه لا على ضميره اهتماما به ، و لأجل هذا المعنى عكس ذو الرُّمة فى قوله :

ولم أمدحْ لأرضيه بشعرى لئيما أن يكون أُصاب مالا

لأن غرضه إيقاع نفى المدح على اللئيم صريحا دون الإرضاء ، ويجوز أن يكون سبب الحذف فى بيت البحترى قصد البيان بعد الابهام ، أو قصد المبالغة فى التأدب مع الممدوح بترك مواجهته بالتصريح بما يدل على تجويز أن يكون له مثل ، لأن العاقل لا يطلب إلا ما يجوز وجوده

ومنها قصد التعميم فى المفعول مع الاختصار ، مثل قوله تعالى ( والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم ) أى يدعو كل أحد ، ولا شك أن التعميم موجود مع ذكره ولكنه لا اختصار معه ، والحذف له فى ذلك تأثير فى الجملة ، وهذا من جهة أن تقدير مفعول خاص فيه دون آخر ترجيح بلا مرجح فيكون الحمل على العموم أولى

## ٣ — التعريف والتنكير

مقام التعريف والتنكير

للتعريف مقامه الذى يرجحه على التنكير ، كما أن للتنكير مقامه الذى يرجحه على التعريف ، وإنه ليتبين الفرق بينهما جليا فى قوله تعالى « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين » فانه لما كان لايتعلق بتعيين هذا الرجل غرض جىء به منكرا ، ثم إنه لابد أن يكون أتى الى موسى فى خفية خوفا على نفسه ، فكان التنكير أنسب بحاله ، أما المدينة فعرفت لأن المراد بها مدينة فرعون ، ولا بد من تعريفها لتتعين بها هذه الحوادث التى وقعت لموسى فيها ، وأما الملأ فعرف لأن المراد بهم ملأ القتيل الذى قتله ولابد من تعريفهم ليعرف موسى قوة الخطر المحدق به ، فيسمع النصح الذى يوجه له ، فمقام التعريف يكون حيث يطلب تعيين المقصود فى الكلام ، وهذا هو مقام

مطلق التعريف ، وستأتى له مقامات خاصة بأنواعه من الضمائر، والأعلام ، والأسماء
الموصولة ، وأسماء الاشارة ، والأسماء المعرفة باللام ، والأسماء المعرفة بالاضافة
ومقام التنكير يكون حيث لا يطلب تعيين المقصود فى الكلام ، وهذا هو المقام
الأصلى فيه ، وستأتى له مقامات أخرى غيره

مقام الضمائر

الأصل فى الضمائر أن تكونَ للدلالة على تكلم أو خطاب أو غيبة ، وهذه هى
معانيها النحوية المعلومة ، وقد يشعر ضمير التكلم ( أنا ) باعتداد المتكلم بنفسه كما
أشار الى هذا بعض الشعراء :

إنَّ الفتى من يقول هَا أنَذَا ليس الفتى من يقولُ كان أبِى

ومن ذلك قول بشار :

أنا المُرَعَّثُ لا أخفى على أحدٍ ذَرَّتْ بِىَ الشمسُ للقاصي وللدَّانى[1]

وقد يبالغ المتكلم فى تعظيم نفسه فيضع لها ضمير جماعة المتكلمين ( نحن )
ويمكن أن يكون من هذا قول عمرو بن امرىء القيس الخزرجى :

نحن بما عندنا وأنتَ بما عندك راضٍ والرأى مختلفُ

وكذلك ضمير الخطاب قد يشعر بمثل مايشعر به ضمير المتكلم وراء معناه
الأصلى ، فان الأصل فى الخطاب أن يكون لمشاهد معين ، ولكنه قد يخاطب به
غير المشاهد بتنزيله منزلة المشاهد ، وإشعار أنه دائم الحضور بالقلب ، مثل قوله
تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » وقول ابن زيدون :

بِنْتُم وبِنّا فما ابتلَّتْ جوانحُنَا شوقا اليكم ولا جفَّتْ مآقينا

وقد يخاطب به غير المعين ليعم كل من يمكن خطابه على سبيل البدل ، لا على
طريق التناول دفعة واحدة ، وقد قيل إن هذا تجوز فى استعماله ، والحق أنه ليس
من التجوز ، لأن المجاز لا يأتى فى الضمائر وأشباهها ، ومن ذلك قوله تعالى « ولو
ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل

(١) [illegible]

صالحا إنا موقنون » فقد أخرج الكلام فى صورة الخطاب مع إرادة العموم تنبيها الى تفظيع حالهم ، وأنها بلغت الغايه فى الظهور بحيث لا تخفى على أحد ، ومن ذلك قول المتنبى :

اذا أنت أكرمتَ الكريمَ ملكتَهُ  وإن أنت أكرمت اللئيم تمرَّدَا

والأصل أيضا فى ضمير الغائب أن يعود الى مذكور فى الكلام أو ما هو فى حكم المذكور ، كما فى قوله تعالى « اعدلوا هو أقرب للتقوى » أى العدل المفهوم من قوله ( اعدلوا ) وقد يعود ضمير الغيبة الى غير مذكور لفظا أو حكما ، كما فى باب نعم وبئس ، وباب ضمير الشان والقصة ، مثل قوله تعالى « فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » وقول الشاعر :

نعم امرءًا هَرِمٌ لم تعرُ نائبة  إلا وكان لمرتاع بها وَزَرا

وفائدة هذا النوع من البيان تمكين المعنى فى نفس السامع بما فيه من نكتة الاجمال ثم التفصيل ، وقد يعود ضمير الغيبة الى غير مذكور أيضا اذا أريد الاشعار بأنه دائم الحضور فى الذهن فى مقام التغزل أو نحوه ، كقول الشاعر :

أبتِ الوصال مخافة الرقباء  وأتتك تحت مدارع الظلماء

وقد تكون نكته ترك ذكرها إخفاء أمرها ، حتى لا يعرفها أولئك الرقباء فينمون عليها ، وسيأتى فى باب الايجاز عد هذا الاضمار نوعا منه

مقام العلم

والأصل فى الأعلام أن تكون للدلالة على معين بذاتها كما هو معناها النحوى ولكنها قد تشعر مع هذا بمدح أو ذم أو نحوهما ، كما فى الألقاب والكُنَى المحمودة أو المذمومة مثل قوله تعالى : « تبت يدا أبى لهب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب » وكان اسمه عبد العزى فعدل عنه الى كنيته إهانة له

مقام الموصول

والأصل فى الأسماء الموصولة أن تكون لتعيين المعنى المراد منها بصلاتها ، ولكنها قد تشعر مع هـذا بنوع من التفخيم تقصد من أجله ، مثل قوله تعالى : « فغشاها ما غشى » وقول أبى نُواس :

ولقد نَهزْتُ مع الغُواةِ بدَلوِهمْ وأسمتُ مَسرح اللحظ حيثُ أساموا
و بلغتُ ما بلغ امرؤٌ بشبابه فاذا عُصارة كلّ ذاك أثام[١]

وقد يكون فى صلاتها إيماء الى ما يأتى بعدها فيكون فى هذا نوع من الابهام ثم البيان ، كما فى قول عَبْدَة بن الطبيب :

إن الذين تُرَونهم إخوانكم يشفى غليلَ صدورهم أن تُصْرَعوا

وقد ذكر الخطيب[٢] في هذا البيت نكتة أخرى ذكرها فى نكات التعريف بالصلة ، وهى نكتة تنبيه المخاطب الى الخطأ فى ظنه ، وإنى أرى أن هذه نكتة متمحلة ولا تكاد تخرج عن نكتة الايماء السابقة ، ومن الايماء بالصلة أيضا قول الفرزدق :

إن الذى سَمَكَ السماء بَنى لنا بيتاً دعائمهُ أعزُّ وأطولُ

وقول أبى العلاء :

إنّ الذى الوحشةُ فى داره تؤنسه الرحمةُ فى لحدهِ

وهو شبيه بالايماء فى بيت عبدة فى أن كلا منهما إيماء الى نقيض ما يومىء فيه وذلك نوع عجيب من قوة البيان ، وإنه ليفعل فى النفس ما يفعل فيها السحر ، وقد يقصد بالايماء أن يتوجه ذهن السامع الى ما سيخبر به ، حتى يأخذ منه مكانه عند إلقائه ، وهذا فن عجيب من قوة البيان أيضاً يسمى التشويق ، كما فى قول أبى العلاء :

والذى حارتِ البريّة فيهِ حيوانٌ مستحدثٌ من جماد[٣]

وقد يستعمل اسم الموصول أيضا فى إخفاء أمر من الأمور لغرض من الأغراض ، كما فى قول الشاعر :

---

(١) نهزت الدلو ضربت به فى الماء ، وأسمت رعيت ، والعصارة ما تحلب مما عصر
(٢) شرح الايضاح ص ٨٢
(٣) هذا على حذف مضاف والتقدير معاد حيوان

وأخذتُ ما جادَ الاميرُ به وقضيت حاجاتى كما أهْوَى

وقد يستعمل فى مقام التهكم كما يستعمل فى مقام التفخيم مثل قوله تعالى « وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون »

مقام اسم الاشارة

والأصل فى أسماء الاشارة أن تكون لتعيين المشار اليه باشارة حسية ولكنها قد تشعر مع ذلك بتعظيمه وكمال ظهوره كما فى قول ابن الرومى فى مدح أبى الصقر:

هذا أبو الصقر فرداً فى محاسنهِ من نسل شيبانَ بين الضَّال والسَّلَم

وكما فى قول الفرزدق يهجو جريرا ويفخر بآبائه عليه :

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم اذا جمعتنا يا جريرُ المجامعُ

وقد ذكروا أنه فى هذا يعرض بغباوة جرير أيضا ، ويشير الى أنه من الغباوة بحيث لا تتميز الأشياء لديه الا بالاشارة الحسية

وقد تستعمل الاشارة القريبة فى التحقير كما استعملت فى بيت ابن الرومى للتعظيم ، كما فى قوله تعالى ( واذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون ) يريدون تحقيره بدنو منزلته وأنه لم يكن من ذوى الرياسة فيهم ، وقد تستعمل الاشارة البعيدة للتحقير كما استعملت للتعظيم فى بيت الفرزدق ، نحو قوله تعالى ( فذلك الذى يدعُّ اليتيم ) يريد تحقيره بعدم تقريبه منه فى الاشارة اليه

وقد تتضمن الاشارة نوعا بديعا من البيان ، فتذكر قبلها أوصاف كثيرة ثم تطوى فيها طياً ، ثم يرتب عليها ما يراد ترتيبه على هذه الأوصاف ، وهذا نوع من البيان يسلك فيه الاجمال بعد التفصيل ، على عكس البيان بالتفصيل بعد الاجمال وذلك مثل قول حاتم الطائى :

ولله صُعْلوكٌ يساورُ همَّهُ ويمضى على الأحداث والدهر مُقْدِما[1]

---

(١) الصعلوك الفقير ، ويساور يواثب ، والخمص الجوع ، ومجنه ترسه ، والشطب الخطوط فى متن السيف ، وعضب الضريبة قاطع الحد ، والمخذم القاطع بسرعة ، والاحناء جمع حنو وهو

فَتى طَلبات لا يرى الخَمصَ ترحةً ... ولا شبْعَةً إن نالها عدَّ مغنما
إذا ما رأى يوماً مكارم أعرضت ... تيمَّم كبراهنَّ ثمَّت صمَّما
ترى رمحه ونبله ومجنّه ... وذا شطب عضب الضريبة مخذما
وأحناء سرج قاتر ولجامه ... عتادُ أخي هيجا وطرفاً مسوَّما
فذلك إن يهلك فحُسنٌ ثناؤه ... وإن عاش لم يقعد ضعيفاً مذمما

وقد يستعمل اسم الاشارة لغير الحاضر المحسوس ، بتنزيل الغائب منزلة الحاضر وتنزيل المعقول منزلة المحسوس ، وهذا مثل قوله تعالى : ( مَثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار ) وقوله : ( وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ) وقول أحمد بن يحيى بن إسحاق الرَّاوندى :

كم عاقلٍ عاقلٍ أعيت مذاهبُه ... وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الأوهامَ حائرةً ... وصيَّر العالم النحرير زِنديقا

اسم الاشارة لا يأتي موضع الضمير

أى هذا المذكور من حرمان العاقل ورزق الجاهل ، وقد جعلوا هذا من باب وضع المظهر موضع المضمر ، وهو عندى من تنزيل غير المحسوس منزلة المحسوس ، واسم الاشارة فى هذا مثل ضمير الخطاب إذا استعمل فى غير المشاهد لتنزيله منزلة المشاهد ، وهو أيضاً صالح للاشارة به الى ما يذكر فى الكلام قبله ، ولا يفترق فى هذا عن الضمير فى عوده اليه أيضا

مقام التعريف باللام

والأصل في اللام أن تكون لتعريف الحقيقة والجنس ، ولكنها قد يقترن بها من القرائن ما يجعلها لتعريف العهد ، أو للاستغراق ، فأما التى لتعريف العهد فتعود الى مذكور قبلها في الكلام ولو بطريق الكناية ، أو الى معهود خارجى بين المتكلم والمخاطب ، والأولى مثل قوله تعالى ( إنا أرسلنا اليكم رسولا شاهدا

---

اسم لقربوس السرج وهما قربوسان مقدم ومؤخر ، والقاتر الجيد الوقوع على الظهر ، والعتاد العدة ، والطرف الفرس الكريم

عليكم كما أرسلنا الى فرعون رسولا ، فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلا »
وهي من باب وضع المظهر موضع المضمر ، فيقصد منها مايقصد منه من التأكد
وزيادة التمكين ، والثانية يقصد منها الايجاز والاختصار أو التنويه بشأن الشيء وأنه
بحيث لايجهله أحد ، مثل قوله تعالى « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت
الشجرة فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريبا » فالمراد الشجرة
التى سميت بعد شجرة بيعة الرضوان ، وقد اكتفى بعلمها لهم عن تعيينها بما تعين
به من مكان وغيره ، ومما يفيد التنويه منها بشأن مادخلت عليه قول الحُطَيْئَة :

مَطاعينُ للهيجا مَكاشيفُ للدُّجى  بنى لهمُ آباؤهم وبنى الجد

وأما التى للاستغراق فانها تدل عليه مع الاختصار أيضا ، مثل قوله تعالى
« والعصر ، إن الانسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا
بالحق وتواصوا بالصبر » فالمراد كل إنسان ، وهذا مركب من كلمتين ، وتلك
كلمة واحدة ، ومما يدق فيه وجه الفرق بين هذه اللامات قوله تعالى ﴿ ما أصابك
من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا
وكفى بالله شهيدا ﴾ فتعريف الناس فيه للاستغراق ، والمعنى أنه أرسله لجميع
الناس من العرب والعجم لا للعرب وحدهم ، لما يفيده من القصر بتقديم الجار
والمجرور على المفعول ، وليس تعريف اللام للعهد أو الجنس ، لئلا يفيد الكلام في
الأول قصر رسالته على بعض الانس ، لوقوعه فى مقابلة كلهم ، وفى الثانى قصرها
على الانس دون الجن ونحوهم

تعريف الخبر بالـلام

وقد تدخل اللام على خبر المبتدإ فتأتى في هذا لغرضين : أولهما قصر الخبر
على المبتدإ تحقيقاً أو ادعاء ، وهذا مثل قول الأعشى في القصر التحقيقى :

هو الواهبُ المائةَ المصطفا  ةَ إما مَخاضاً [1] وإما عِشارا

والقصر الادعائى مثل قول المتنبى

---

(١) المخاض الحوامل لا واحد له من لفظه ، والعشار جمع عشراء كنفساء وزنا ومعنى

أنتَ الحبيبُ ولكنى أعوذ به  من أن أكون مُحِباً غير محبوب

وثانيهما : الدلالة على ظهوره وأنه لا يخفى على أحد ، ولا ينكره منكر ، مثل قول الشاعر :

أسودٌ اذا ما أبدتِ الحربُ نابَها  وفى سائر الدهر الغيوثُ المواطِرُ

وقول الخنساء :

اذا قَبُحَ البكاء على قتيلٍ  رأيتُ بكاءك الحَسَنَ الجميلا

ولا يصح حمل التعريف هنا على القصر ، لأن هذا الكلام للرد على من يتوهم أن البكاء على هذا القتيل قبيح كالبكاء على غيره ، فيكفى فيه إخراجه من القبح الى الحسن ، ولو كان الكلام للرد على من يسلم حسن البكاء على هذا القتيل ويدعى أن بكاء غيره حسن أيضاً ، لصح حمل التعريف فى البيت على القصر ، ولكن يمنع من هذا صدر البيت كما هو ظاهر ، وقد ذكر الفخر الرازى [1] أنه لو جعل مفيدا للقصر على وجه الادعاء والمبالغة لم يكن فيه خلل

تعريف المبتدأ والخبر

والغرض من تعريف الخبر مطلقا إفادة السامع حكما بأمر معلوم له ، ولكنه يجهل ثبوته للمبتدإ ، وإلا فلا بد أن يكون الخبر نكرة ، وهو الأصل فيه لأنك إنما تخبر بما يجهله المخاطب فتعرفه إياه ، فاذا قلت زيد أخوك فلا بد أن يكون هذا فى مقام من يعلم أن له أخا ، ولكنه يجهل أنه زيد ، واذا قلت زيد أخ لك فلا بد أن يكون فى مقام من يجهل أن له أخا ، والفرق بين قولك زيد أخوك وقولك أخوك زيد أن الأول يعرف المخاطب فيه زيدا بعينه واسمه ولا يعرف أنه أخوه ، أما الثانى فيعرف المخاطب فيه أن له أخا ولا يعرف أنه زيد ، وفى كل منهما يتعين فى هذا العلم أن يكون الأول هو المبتدأ والثانى هو الخبر ، وهذه فروق دقيقة لا يعتبرها النحويون ، وقد اختلفوا فى إعراب ذلك ، والمشهور عندهم أن الأول هو المبتدأ ،

---

(١) دراية الاعجاز ص ٤٤

وقيل إن المبتدأ هو أعرفهما ، وقيل إنه الاسم والوصف خبر ، وقيل إن كلا منهما صالح للابتدائية والخبرية

مقام التعريف بالاضافة

والأصل فى التعريف بالاضافة أن يكون لتعيين المقصود باضافته الى معين يعرفه ولكنها مع هذا قد تؤثر على غيرها من المعارف فى مقام تكون فيه أخصر منها مثل قول جعفر بن عُلبَةَ الحارثى :

هَواى مع الركب اليمانين مُصعِدٌ  جَنيبٌ وجُثمانى بمكة موثَقُ(١)

فان قوله ( هواى ) أخصر من أن يقال ( الذى أهواه ) ونحوه وهذا مع ما فى الاضافة من تقريب محبوبه منه ، وافادة اختصاصه به ، ومن ذلك قول مروان بن أبى حفصة فى مدح معن بن زائدة وقومه :

بنو مطرٍ يومَ اللقاء كأنَّهم  أسودٌ لها فى غِيلِ خَفّانَ أشبُلُ(٢)

وقول الحارث بن وَعْلَة :

قومى هُمُ قتلوا أُمَيْم أخى  فاذا رميتُ يصيبنى سهمى

فبنو مطر فى الأول وقومى فى الثانى أخصر طريق للتعريف بالمقصود فيهما ، ولو أريد فيهما التعريف بذكر الأسماء لتعذر ذلك أو تعسر

وقد تتضمن الاضافة تعظيما أو تحقيراً لشأن المضاف أو المضاف اليهما أو غيرهما كما فى قول جميل :

أبوك حُبابٌ سارقُ(٣) الضيفِ بُردَهُ  وجَدّىَ يا حجّاجُ فارس شَمّرا

وقد تتضمن إشارة الى استعطاف أو نحوه ، مثل قوله تعالى « لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده »

وقد تتضمن الاضافة لطفاً مجازيا إذا كانت لأدنى ملابسة بين المضاف والمضاف اليه كما فى قول الشاعر :

---

(١) هواى مصدر بمعنى اسم المفعول ، ومصعد اسم فاعل بمعنى مبعد ، وجنيب بمعنى مستتبع من جنب البعير قاده الى جنبه

(٢) الغيل الاجة ، وخفان مأسدة قرب الكوفة

(٣) أصله سارق من الضيف برده فحذف الجار تخفيفا وأضيف سارق الى المجرور

إذا كوكبُ الخرقاء لاحَ بِسُحْرَةٍ  سُهيلٌ(١) أذاعتْ غزلها فى الأقاربِ

يصف حمقاء بأنها لاتتذكر كسوة الشتاء إلا اذا دهمها ، فتستعين عليها بأقاربها وقد أضاف اليها هذا الكوكب لأنه هو الذى يذكرها بتلك الكسوة ، والاضافة فى هذا لأدنى ملابسة كما هو ظاهر

ولا فرق فى هذه المزايا للاضافة بين أن تكون الى معرفة وأن تكون الى نكرة ومن الاضافة الى نكرة لأجل إفادة التعظيم قول امرأة من بنى عامر :

وحرب يضجُّ القومُ من نَفَيَانها  ضجيجَ الجمالِ الجِلَّةِ الدَّبِرَاتِ

سيتركها قومٌ ويصلَى بحرِّها  بنونسوةٍ للثُّكْلِ مُصطَبِرَاتِ(٢)

ومن اضافتها اليها لأجل إفادة التقليل والتحقير قول القتّال الكلابىّ :

اذا جاعَ لم يفرحْ بأكلةِ ساعةٍ  ولم يبتئس من فقدها وَهْوَ ساغبُ

مقامات التنكير

والأصل فى التنكير أن يكون للدلالة على فرد منتشر مما يدل عليه ، فاذا كانت النكرة مفردة دلت على واحد، واذا كانت مثناة دلت على اثنين ، واذا كانت جماعة دلت على ثلاثة ، واذا كانت نوعا دلت على النوعية ، أى فرد من سائر الأنواع وهذا هو معنى النكرة فى النحو ، وقد تدل فى هذا العلم على معان وراء هذا المعنى ومن هذه المعانى الاشارة الى أمر غريب غير معهود للناس ، كما فى قوله تعالى « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » أى نوع من الغشاوة غير مايتعارفه الناس ، وهى غشاوة التعامى عن آيات الله ، وكذلك قوله « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون » أى نوع من الحياة مخصوص ، وهو الحياة الزائدة ، كأنه قيل ولتجدنهم أحرص الناس على أن يزدادوا الى حياتهم فى الماضى والحاضر حياة فى المستقبل ، ولو عرفت الحياة لكان

---

(١) بدل من كوكب الخرقاء.

(٢) نفيانها ترابها تنفيه وتطيره فى الجو ، والجلة جمع جليل وهو العظيم ، والدبرات المصابة بالدبر ، والثكل فقد الولد

المراد منها أصل الحياة ، وهى حاصلة لهم ، فلا يكون هناك معنى لوصفهم بالحرص عليها ، لأن الانسان لا يوصف بالحرص على شىء إلا اذا لم يكن موجوداً له

ومنها الاشارة الى التعظيم والتحقير ، كما فى قوله تعالى « ولكم فى القصاص حياة يأولى الألباب لعلكم تتقون » أى حياة عظيمة ، وهذا لمنعه مما كانوا عليه من قتل جماعة بواحد متى اقتدروا عليه ، ويجوز أن يكون المراد نوع من الحياة غريب ، وهو الحاصل للمقتول والقاتل بالارتداع عن القتل ، لأن الانسان إذا هم بالقتل تذكر القصاص فارتدع ، فسلم صاحبه من القتل ، وسلم هو من القود فكان القصاص سبباً لحياة نفسين ، وقد اجتمع التعظيم والتحقير فى قول مروان بن أبى حفصة :

له حاجبٌ عن كلِّ أمرٍ يشينُهُ ... وليس له عن طالب العُرْفِ حاجبُ

أى له حاجب عظيم من نفسه يمنعه عما يشينه ، وليس له حاجب ما عن طالب نواله ، وأما قوله تعالى « يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا » فيجوز أن يكون المراد عذاب عظيم ، ويجوز أن يكون المراد أدنى عذاب ، وقد اختار هذا الزمخشرى ، فانه ذكر أن ابراهيم عليه السلام لم يخل هذا الكلام من حسن الأدب مع أبيه ، فلم يصرح بأن العذاب لاحق له لاصق به ، ولكنه قال « إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن » فذكر الخوف والمس ، ونكر العذاب

ومنها التكثير والتقليل ، وهما معنيان غير التعظيم والتحقير ، لأن التعظيم والتحقير يرجعان الى علو الشأن وانحطاطه ، والتكثير والتقليل يرجعان الى الكثرة والقلة فى الأعداد والمقادير ، ومن هذا قوله « وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك والى الله ترجع الأمور » أى رسل ذوو عدد كثير ، واذا كان رسل جمع كثرة فان الكثرة التى يدل عليها التنكير أبلغ من الكثرة التى يدل عليها الجمع لأن كثرة الجمع يكفى فيها أقل كثرة بخلاف التنكير فانه يدل على كثرة لايدرك

مقدارها ، ويجوز أن يكون التنكير هنا للتكثير والتعظيم معا ، ومن ذلك قوله تعالى « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » أى رضوان قليل منه أكبر من ذلك كله ، لأن لذة الرضا فوق كل لذة

ومنها أن يمنع من التعريف مانع فيؤثر عليه التنكير ، كما فى قول الشاعر :

اذا سئمتْ مُهنَّدَهُ يمينٌ      لطول الحمل بدَّله شمالا

فلم يقل يمينه لكراهته أن ينسب سأمه هذا الى يمين ممدوحه ، فنكرها ولم يضفها اليه

وبهذا نختم الكلام فى التعريف والتنكير ، بعد أن أعرضنا فيه عما لا يفيد شيئاً فى هذا الفن ، خصوصاً ما أطالوا فيه عند الكلام على التعريف باللام

## ٤ — التقديم والتأخير

مزايا التقديم

قال عبد القاهر فى هذا الباب من دلائل الاعجاز : هو باب كثير الفوائد جمّ المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قُدّم فيه شيء ، وحول اللفظ من مكان إلى مكان ، وإنما يكون للتقديم هذا الحسن الذي ذكره عبد القاهر إذا لم يؤدِّ الى تعقيد فى الكلام ، كما سبق مثل هذا فى قول الفرزدق :

وما مثله فى الناس إلا مُمَلَّكاً      أبو أمه حىٌّ أبوه يقاربُهْ

تقسيم التقديم

والتقديم يأتى على قسمين : أحدهما تقديم يأتى على أصله فى النحو ، ولا كلام لنا فى هذا التقديم ، وهذا كتقديم المبتدإ المعرف على خبره ، وتقديم العامل على معموله ، وكالتوابع فان أصلها أن تذكر بعد المتبوعات

وثانيهما تقديم يأتي لمقامات تقتضيه ، وإن أتى فى هذا موافقا لأصله النحوى ، كما فى قوله تعالى ﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون﴾ وقوله : ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء لأنزل ملائكة ماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين﴾ فقد أتى قوله ( من قومه ) مقدماً فى الآية الأولى ومؤخراً فى الثانية لما سيأتى بيانه فى ذلك ، مع أنه قد أتى فى موضعه النحوى من الآية الأولى ، لأنه حال من الفاعل قبله ، والموصول بعده صفة له ، ويجوز أن يكون صفة للفاعل كما هو صفة له فى الآية الثانية

وينقسم التقديم الذى يأتي لمقامات تقتضيه الى قسمين : أحدهما يختص بدرجة التقدم فى الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك ولو أخر لم يتغير المعنى ، وهذا القسم لايختص بالمفردات من الطرفين ومتعلقاتهما ، وثانيهما يختص بدلالة الألفاظ على المعانى ولو أخر لتغير المعنى ، ولنسم الأول تقديماً ذكرياً ، ونسم الثانى تقديماً معنوياً ، ولنبين بعد هذا مقامات كل منهما ؛

مقامات التقديم الذكرى

فأما مقامات التقديم الذكري فانها كما قال ابن الأثير [1] مما لايحصره حد ، ولا ينتهى اليه شرح ، ومنها تقديم السبب على المسبب كقوله تعالى ( إياك نعبد وإياك نستعين ) قدم العبادة على الاستعانة لأن تقديم القربة والوسيلة قبل طلب الحاجة أنجح لحصول الطلب ، وأسرع لوقوع الاجابة ، ولوقال إياك نستعين وإياك نعبد لكان جائزاً ولكنه لايسد ذلك المسد

تقديم الاكثر على الاقل

ومنها تقديم الأكثر على الأقل ، كقوله تعالى ( ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير ) فالظالم لنفسه من العباد بالكفر والعصيان أكثر من غيره

---

(١) المثل السائر ص ١٨١

ثم يليه المقتصد فالسابق بالخيرات ، ولو عكس الأمر كان جائزاً ، لأنه يكون قد روعى فيه تقديم الأفضل فالأفضل

تقديم الاعجب فالاعجب

ومنها تقديم الأعجب فالأعجب ، كقوله تعالى ( والله خلق كل دابة من ماء فنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله مايشاء إن الله على كل شيء قدير ) قدم الماشى على بطنه لأنه أدل على قدرته ، إذ يمشى بغير آلة تساعده على المشى ، ثم ذكر الماشى على رجلين لأنه يليه فى ذلك ، ثم ذكر الماشى على أربع بعدهما فى رتبته التى تليهما

التقديم للترقي

ومنها البدء فى باب المديح بالصفة الدنيا ، ثم بما هو أعلى منها وهكذا ، كما فى قول البحتري :

يترقرقن كالسَّراب وقد خُضْـ ـنَ غماراً من السَّراب الجارى
كالقِسِى المعطَّفاتِ بل الأسـ ـهم مبريّة بل الأوتار

شبه نحولها بالقسى ثم بالأسهم المبرية ثم بالأوتار وهي أشد الثلاثة نحولا ، وهم يعكسون هذا الترتيب فى باب الذم

تقديم الاليق بالسياق

ومنها تقديم الأليق بالسياق ، كما فى قوله تعالى ( فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق ، خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد ، وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ) قدم أهل النار على أهل الجنة لأن الكلام قبل هذا كان فى سياق التخويف والتحذير ، وقد جاء الكلام فيه عقب قصص الأولين وما فعل الله بهم من التعذيب والتدمير ، فكان الأليق أن يوصل هذا بما يناسبه فى المعنى ، وهو ذكر أهل النار ، فقدموا فى الذكر على أهل الجنة

ومن هذا قوله تعالى ( وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ) قدم

الأرض على السماء ومن حقها التأخير عنها ، لأنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم ، وصل هذا بقوله وما يعزب ولامم بينهما ليلى المعنى المعنى ، ويؤيد هذا أن السموات قدمت فى الآية الأخرى من سورة سبأ : ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾

مقامات التقديم المعنوى

والتقديم المعنوى كتقديم المفعول على الفاعل ، وتقديم الخبر على المبتدإ ، وتقديم الظرف أو الحال أو الاستثناء على العامل ، والتقديم فى هذا يكون لمعنى يتغير بالتأخير كما سبق ، ولكن هذا التغيير لا يظهر تماماً إلا فيما يكون التقديم فيه لإفادة التخصيص بخلاف مايكون التقديم فيه لغير التخصيص من الأغراض الآتية ، فانه يكاد يكون شأنه فى هذا مثل شأن التقديم الذكرى

التقديم للتشويق

ومن هذه الأغراض تشويق السامع الى المؤخر ليتمكن فى نفسه ، كقول أبى العلاء :

والذى حارتِ البريّةُ فيه  حيوانٌ مستحدَثٌ من جمادِ

وهذا من تقديم المسند اليه وهو المبتدأ على المسند وهو الخبر ، ومثال ذلك من تقديم المسند على المسند اليه قول محمد بن وُهَيْب فى مدح المعتصم :

ثلاثةٌ تشرق الدنيا ببهجتها  شمس الضحى وأبو اسحاق والقمرُ

وقول أبى العلاء :

وكالنار الحياةُ فمن رَمادٍ  أواخرها وأولها دُخان

ولكن حق هذا الاعتبار تطويل الكلام فى المقدم ليكون التطويل أدعى الى التشويق ، وإلا لم يحسن ذلك الحسن

التقديم للتعجيل بالمقصود

ومنها إرادة التعجيل بالمقصود من مسرة أو إساءة أو غيرهما ، كقول الشاعر :

سعدتْ بغرة وجهك الأيام  وتزينتْ بلقائك الأيامُ

التقديم للاهتمام

ومنها الاهتمام بالمقدم والاعتناء به ، وهذا الغرض هو الأعم الأغلب في التقديم

ومنه قول الشاعر :

سلامُ الله يا مطرٌ عليها　　　وليس عليك يا مطر السلام

ومن أجله وجب أن يقدر المحذوف فى ( بسم الله الرحمن الرحيم ) مؤخراً اهتماما بشأن اسم الله تعالى ، فأما قوله تعالى ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ﴾ فانما قدم الفعل فيه لأنها أول سورة أنزلت ، فكان ابتداء الأمر بالقراءة فيها أهم ، وقد ذهب السكاكى الى أن الجار والمجرور فيها متعلق باقرأ الثانية ، وهو تكلف ظاهر . وأما قوله تعالى ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾ وقوله ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾ فانما قدم المخاطبون فى الآية الأولى دون الثانية لأن الخطاب فى الأولى للفقراء ، بدليل قوله من إملاق ، فكان رزقهم أهم عندهم من رزق أولادهم ، فقدم الوعد برزقهم على الوعد برزق أولادهم . أما الثانية فالخطاب فيها للأغنياء بدليل قوله خشية إملاق ، فكان رزق أولادهم هو المطلوب الأهم عندهم ، فقدم الوعد برزق أولادهم على الوعد برزقهم ، ويمكنك أن تجعل التقديم فى الآيتين من التقديم الذكرى ، والخطب فى هذا سهل

ومن التقديم للاهتمام أيضاً قوله تعالى « وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين » قدم الجار والمجرور على الفاعل زيادة فى تبكيت هؤلاء القوم الذين شاهدوا من المرسلين لقربهم منهم ما لم يشاهد ذلك الرجل ، ومع هذا نصح لهم بما لم ينصحوا به أنفسهم ، وقد جاء فى مثل هذا على الأصل قوله تعالى : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين » لأنه لم يقترن به ما يدعو إلى تقديم الجار والمجرور مثل ما اقترن بالأول

ومن التقديم للاهتمام فى الاستفهام قوله تعالى : « قال أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم » لأن رغبة ابراهيم عن آلهته كانت أهم شىء عنده ، فكان المقام لانكار

هـذا الفعل منه ، وإفادة أنها لا ينبغى أن يرغب عنها ، وهكذا يقدم فى الاستفهام سواء أكان للإنـكار أم لغيره ما يكون محط الاستفهام والانكار ، كقول أبى العلاء :

أعندى وقد مارستُ كلَّ خفيَّةٍ     يصدَّقُ واشٍ أو يُخَيَّبُ سائلُ

التقديم لدفع توهم خطأ

ومن أغراض التقديم دفع توهم خطأ كتقديم الخبر على المبتدإ للتنبيه ابتداء على أنه خبر لا نعت ، كقول أبى بكر بن النَّطَّاح فى مدح أبى دُلَف :

له هِمَمٌ لا منتهى لكبارها     وهمَّته الصغرى أجلُّ من الدَّهر
له راحةٌ لو أن مِعشار جودها     على البرّ كان البر أندى من البحر

ومن هذا أيضاً أن يوهم التأخير غير المعنى المراد ، كما فى قوله تعالى « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه . الآية » قدم قوله من آل فرعون على قوله يكتم إيمانه لأنه لو أخر عنه لتوهم أنه متعلق بقوله يكتم ، فلا يفيد ذلك أن الرجل من آل فرعون ، والمراد إفادة أنه منهم ، وكذلك قوله تعالى « وقال الملأُ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا . الآية » فانما قدم فيها قوله من قومه وأخر فى الآية السابقة التى ذكرناها معها فى أول هذا الباب ، لأنه لو أخر فى هذه الآية لأتى بعد قوله « وأترفناهم فى الحياة الدنيا » وهذا يوهم تعلقه بالدنيا ، وهو على بعده كاف فى إيثار تقديمه على تأخيره ، ولما لم يكن فى الآية الأخرى مثل هذا جاء التأخير فيها على أصله ، والأولى أن يقال في ذلك إن الوصف بالموصوف فى الآية الاولى طال بما عطف عليه فقدم عليه الوصف بالجار والمجرور لأنه أقصر منه ، ولك بعد هذا أن تجعل الموصول صفة للمجرور لا للفاعل على ماسبق بيانه فى ذلك

التقديم للضرورة

ومنها أن تدعو اليه ضرورة الشعر ، كقول الأُقَيْشِر الأسدى :

سريعٌ الى ابن العمّ يَلْطِمُ وجهه     وليس الى داعى الندى بسريعِ

وقول الآخر :

وكانت يدى مَلْأَى به ثم أصبحت     بحمد إلهى وهى منه سَلِيبُ

وفى هذا المقام من بين مقامات التقديم يتكافأ التقديم والتأخير ، فليس له شىء من الملاحة التى لغيره ، ومثل ضرورة الشعر فى هذا ضرورة السجع وتناسب الفواصل ، وقد سبق أن هذا ليس مما تدعو اليه البلاغة كغيره مما تدعو اليه البلاغة فى هذا العلم ، ولهذا تكافأ فيه من جهة البلاغة التقديم والتأخير ، ومن التقديم لتناسب الفواصل قوله تعالى « قال بل ألقوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة موسى » ولكن القرآن الكريم لا يلجأ إلى التقديم لأجل مزية السجع وحدها ، وإلا كان شأنه فى هذا شأن السجع فى غيره ، ومن مزايا التقديم فى الآيتين غير مزية السجع الاهتمام بشأن سحرهم والمبالغة فى الخيفة التى حدثت فى نفسه ، والاهتمام باثباتها له

التقديم للضرورة ليس من البلاغة

ومن أغراض التقديم أيضا إفادة التخصيص ، وهو فى هذا الغرض يعد من أدوات القصر كما سبق ، والتخصيص فى غالب الأمر لازم للتقديم ، ومن التقديم ما يتعين لافادة التخصيص ، ومنه ما يجوز أن يكون للتخصيص وأن يكون لتقوية الحكم فقط

التقديم للتخصيص

والتقديم المتعين لافادة التخصيص يكون فى صورتين : إحداهما أن يكون المسند اليه واقعاً بعد نفى والمسند خبر فعلى ، ويستوى فى هذا المسند اليه المضمر والمظهر ، كما فى قول المتنبى :

التقديم المتعين للتخصيص

وما أنا أسقمتُ جسمى به     ولا أنا أضرمت فى القلب نارا

فالمعنى فى هذا على أنه هناك إسقام وإضرام ، ولكن الجالب لهما غيره لا هو ، ولهذا لا يصح أن تقول ( ما أنا قلت هذا ولا غيرى ) للتناقض بين أول الكلام وآخره ، وقد وافق السكاكى [1] عبد القاهر فى منع هذا وأشباهه ، وموافقته له فى ذلك دليل على أنه يتعين عنده للتخصيص بدون قيد ولا شرط مما سيأتى له فى

اتفاق الشيخين فى هذه الصورة

(١) المفتاح ص ١٥٢

غير النفى ، وقد زعم الخطيب أن السكاكى يشترط ذلك فى صورة النفى أيضا

والثانية أن يكون المسند اليه نكرة والمسند خبر فعلى أيضا ، نحو قولهم فى المثل المشهور ( شَرٌّ أَهَرَّ ذا ناب ) وهو يضرب فى ظهور أمارات الشر ومخايله والمراد أن الذى أهره من جنس الشر لا من جنس الخير ، لأن الكلب قد يهر فى الخير أيضا ، كالدفاع عن أصحابه ونحوه ، ولا خلاف فى هذه الصورة أيضا بين عبد القاهر والسكاكى ، وإن زعم السعد التفتازانى أن كلام عبد القاهر فى دلائل الاعجاز ظاهر فى أن بناء الفعل على النكرة قد يأتي للتقوية ، فان كلام عبد القاهر [1] فيه صريح فى أنها لا تأتى فى ذلك إلا للتخصيص ، وقد ذكر فيه أنك اذا قلت ( رجل جاءنى ) لم يصح حتى تريد أن تعلم المخاطب أن الذى جاءك رجل لا امرأة أو لا رجلان ، فان لم ترد ذلك كان الواجب أن تقول ( جاءنى رجل ) فتقدم الفعل

اتفاقهما فى هذه الصورة أيضا

والتقديم المحتمل للتخصيص وتقوية الحكم يجىء فى صورة واحدة ، وهى بناء الفعل على المسند اليه المثبت غير المنكر ، فانه تارة يأتى للتخصيص كما فى قوله تعالى « وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب أليم » فالمعنى فى هذا على التخصيص أى لا يعلمهم إلا نحن ، وتارة يأتى لتقوية الحكم ، كقول عروة ابن أُذَيْنة :

التقديم المحتمل للتخصيص والتقوية

سُلَيْمَى أزمعتْ بَيْنَا فأين تقولها [2] أيْنَا

فلا يريد من هذا أن الازماع كان لها وحدها دون غيرها ، وإنما يريد أن يحقق الأمر ويؤكده

وقد اشترط السكاكى [3] فى إفادة هذه الصورة التخصيص شرطين : أحدهما أن يجوز تقدير كونه فى الأصل مؤخراً على أن يكون فاعلا فى المعنى فقط ، وثانيهما

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٧٩ (٢) تظنها (٣) المفتاح ص ١١٩

أن يقدر أنه مقدم من تأخير بالفعل ، فلا يفيد التخصيص عنده على هذا إلا البناء على الضمير نحو قولك ( أنا عرفت ) لأنه هو الذى اذا أخر يكون فاعلا فى المعنى فقط بخلاف البناء على الظاهر نحو قولك ( زيد عرف ) لأنه اذا أخر يكون فاعلا فى اللفظ والمعنى ، ولكنه عاد بعد هذا فقال ( وأما نحو زيد عرف ورجل عرف فليسا من قبيل هو عرف فى احتمال الاعتبارين على السواء بل حق المعرف حمله على وجه تقوى الحكم وحق المنكر حمله على وجه التخصيص ) وهذا ظاهر فى أن البناء على المظهر يحتمل الاعتبارين عنده مثل البناء على المضمر ، ويمكن أن يحمل اشتراطه ماسبق فى إفادة التخصيص على ماهو الغالب فيه ، لأن الغالب فى البناء على الظاهر أن يكون التقوية لا التخصيص ، وهذا هو الذى يتفق مع ماذهب اليه من إفادة التقديم التخصيص فى قوله تعالى « قالوا ياشعيب مانفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز » أى العزيز علينا يا شعيب رهطك لا أنت ، ولهذا قال فى جوابهم ( قال ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربى بما تعملون محيط ) ولا شك أنه لايمكن أن يقال فى هذا التقديم إنه يجوز تأخيره على أنه فاعل فى المعنى فقط

مميزات الاحتمالين

هذا والذى يميز ما يكون من هذا التقديم للتخصيص وما يكون منه لتقوية الحكم إنما هو المقام وسياق الكلام ، ويغلب فيما يكون لتقوية الحكم أن يجىء فيما سبق فيه إنكار من منكر مثل قوله تعالى « ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » لأن الكاذب لاسيما في الدين لا يعترف بأنه كاذب ، فيمتنع أن يعترف بالعلم بأنه كاذب ، وفى تكذيب مدع كقوله تعالى « وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون » وفيما يقتضى الدليل ألا يكون كقوله تعالى « والذين تدعون من دون الله لايخلقون شيئاً وهم يخلقون » فان مقتضى الدليل ألا يكون ما يتخذ إلهاً مخلوقا ، وفى المدح والافتخار كقول المُعَذَّل بن عبد الله الليثى :

هُم يَفرِشُون اللِّبْدَ كلَّ طِمِرَّةٍ     وأجردَ سبّاحٍ يَبذُّ المُغاليا[١]

وكقول طَرَفة بن العبد:

نحن فى المَشْتاةِ ندعو الجَفَلَى     لا ترى الآدِبَ فينا يَنتقِرْ[٢]

وقد ذهب السكاكى الى أن نحو (زيد عارف) قريب من (هو عرف) فى افادة تقوية الحكم، والحق خلاف ما ذهب اليه فى هذا لأنه لو كان نحو (زيد عارف) يفيد تقوية الحكم لما صح خطاب خالى الذهن به، وهو خلاف ماسبق عن أبى العباس فى جواب الكندى من الفرق بين (عبد الله قائم. وان عبد الله قائم وان عبد الله لقائم)

ابطال الحاق نحو زيد عارف بنحو هو عرف

التقديم فى مثل وغير

ومما يكون فيه التقديم لتقوية الحكم تقديم لفظ مثل وغير وما بمعناها فى نحو (مثلك لا يبخل وغيرك لا يعطى) وما الى هذا مما يراد فيه بلفظ مثل أو غير عين ما اضيفا اليه على سبيل الكناية، فان معنى الأول أنت تجود، ومعنى الثانى أنت تعطى، لأنه اذا كان كل من على صفته لا يبخل كان من مقتضى القياس والعرف أنه أيضا لا يبخل، واذا كان غيره هو الذى لا يعطى كان من مقتضى ذلك أيضا أنه هو الذى يعطى، وقد جرى استعمال البلغاء فى هذا على تقديم لفظ مثل وغير وإن كانت هذه الكناية ممكنة مع تأخيرها، لأن التقديم بما يفيده من تقوية الحكم يساعد على الغرض المقصود منها وهو المبالغة فيه. ومن هذا قول المتنبى:

مِثلكَ يثنى الحُزنَ عن صَوْبهِ     ويستردُّ الدمعَ عن غَرْبهِ[٣]

ولم أقل مثلك أعنى به     سواك يا فَرْداً بلا مُشْبهِ

وقوله أيضا:

---

(١) الطمرة الفرس الكريمة والاجرد القصير الشعر، والسباح اللين الجري، والمغاليا بضم الميم السهم ويجوز فتحها فيكون جمع مغلى أومغلاة وهى السهم أيضا

(٢) المشتاة اسم مكان الشتاء، والجفلى الدعوة العامة، والآدب الداعى، وينتقر يدعو بعضا ويترك بعضا

(٣) صوبه جهته، وغربه مجراه فى العين

غيرى بأكثر هذا النوع ينخدع إن قاتلوا جَبُنوا أو حدّثوا شَجُعوا

وقول أبى تمام :

وغيرى يأكل المعروفَ سُحْتاً وتَشْحَبُ عنده بيضُ الأيادى

وقول البارودى :

سِوَاى بِتَحْنان الأغاريد يَطْرَبُ وغيرى باللذاتِ يلهو ويلعبُ

فاذا أريد بمثل وغير سوى ما أضيفا اليه لم يلزم تقديمهما لأن الكلام فيهما يكون على سبيل الحقيقة لا الكناية ، كما فى قول الصابى :

تَشابَهَ دَمعى إذ جرى ومُدَامتى فمن مثل ما فى الكأس عينى تسكب

وقول الآخر :

غيرى جنى وأنا المعاقب فيكمُ فكأنَّنى سَبَّابة الْمُتَنَدِّمِ

تقديم أداة العموم على النفى

ومما يكون التقديم فيه لتقوية الحكم أيضا تقديم أداة العموم ، مثل قولك ( كل انسان لم يقم ) فهو أقوى دلالة على العموم من قولك ( لم يقم إنسان ) وللقوم هنا كلام طويل فى دلالة كل على عموم النفى اذا تقدمت عليه كما فى المثال الأول ، وفى دلالتها على نفى العموم إذا تأخرت عنه ، كما فى قولك ( لم يقم كل انسان ) وهو كلام على طوله لا صلة له بهذا العلم ، لأن هذه الدلالة ترجع الى اللغة والوضع ، فلا يصح أن يبحث فيها هنا

تقدم ذكره فى هذا العلم

التقديم فى الاستفهام

وشأن التقديم فى الاستفهام من جهة إفادة التخصيص أو تقوية الحكم كشأن التقديم فى غيره مما سبق ، ومن التقديم فيه للتخصيص قوله تعالى : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » فالمعنى على أنه إنما يقدر على هذا الله لا أنت ، ومن التقديم فيه لتقوية الحكم قوله تعالى « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون » فالمعنى على إنكار أن يكون إذن من الله فى هذا ، لا على أن الاذن ينكر من الله دون غيره

## ٥ — التقييد والاطلاق

التقييد يكون بالمفاعيل ونحوها من الفضلات . وبالنعت وغيره من التوابع ، وبالشرط لأنه قيد فى الجواب ، فاذا قلت ( إن جئتنى أكرمك ) كان معنى هذا أكرمك وقت مجيئك . أما الاطلاق فترك التقييد بذلك كله ، ولكل منهما مقامات تقتضيه ، ولكن يجب أن ننبه هنا الى أمر غفل علماء هذا الفن عنه فجاء كلامهم فيه أقرب الى علم النحو منه الى علم المعانى ، وهذا الأمر هو أن التقييد والاطلاق يرجعان فى الحقيقة الى اعتبار الذكر والحذف ، فاذا فهمناهما على هذا الوجه أمكننا أن نعرف من اعتباراتهما مايرجع الى هذا العلم ، وما يرجع منها الى علم النحو ، و إذن لايكون التقييد بذلك وترك التقييد به وجهين من وجوه البلاغة الا عند قيام القرينة فيهما ، وشأنهما فى هذا شأن الذكر والحذف سواء بسواء . ويمكننا بعد هذا أن نستغنى هنا عن الكلام فى التقييد بالمفاعيل ونحوها وترك التقييد بها ، لأن هذا قد شمله الكلام على الذكر والحذف فيما سبق ، فلم يبق إلا أن نتكلم هنا على التقييد بالتوابع ، والتقييد بحروف الجر ، والتقييد بالشرط

لرجاعهما الى اعتبار الذكر والحذف

مقام النعت

يؤتى بالنعت فى النحو للتوضيح فى المعارف والتخصيص فى النكرات ، ومتى أريد به ذلك كان ذكره واجباً فى الكلام ، فلا يصح أن نبحث عنه هنا من هذه الناحية ، وانما نبحث عنه هنا إذا كان الكلام يتم بدونه ، فيكون ذكره لأغراض أخرى غير هذا الغرض النحوى ، ومن هذه الأغراض قصد التأكيد ، كما فى قول الشاعر :

وأبى الذى ترك الملوكَ وجمعهم ... بِصُهابَ هامدةً كأمسِ الدّابر [1]

ومنها قصد المدح أو الذم كما فى قوله تعالى : « فتبارك الله أحسن الخالقين » وقوله « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » . وقول خِرْنِقَ

---

(١) صهاب قرية بالبحرين وقيل بفارس

أخت طَرَفة بن العبد :

لا يَبْعَدَنْ قومى الذين هُمُ سمُّ العُداةِ وآفة الجُزُرِ
النازلون بكل مُعْتَرَكٍ والطيبون معاقد الأُزُرِ

ومنها رفع توهم احتمال في الكلام ، مثل قوله تعالى ﴿ وقال الله لاتتخذوا إلهين اثنين انما هو إله واحد فاياى فارهبون ﴾ فان الاسم الحامل لمعنى الافراد والتثنية يدل على شيئين ( الجنسية والعدد المخصوص ) فاذا أريدت الدلالة على أن المقصود من ذلك العدد لا الجنس شفع بما يؤكده ، ليدل على أن القصد اليه والعناية به ، ولهذا لو قلت إنما هو إله ولم تؤكده بواحد لم يحسن ، وخيل الى السامع أنك تثبت الآلهية لا الوحدانية ، ومن ذلك أيضا قوله تعالى ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم الى ربهم يحشرون ﴾ وصف دابة بقوله فى الأرض ووصف طائر بقوله يطير بجناحيه لبيان أن القصد بهما الى الجنسين لا إلى الدلالة على الوحدة المنتشرة ، وهذا يفيد زيادة التعميم والاحاطة ، كأنه قيل - وما من دابة قط فى جميع الأرضين السبع وما من طائر فى جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه

مقام التوكيد

ويمكننا أن نعتبر أغراض التوكيد كلها من هذا العلم ، وأن نحكم بأنه لاحظ للنحو فيه إلا فى حكم الاعراب وما إليه من أحكامه ، فمن أغراض التوكيد دفع توهم التجوز أو السهو أو عدم الشمول ، ولا شك أن هذا لايكون إلا حيث يدعو إلى هذا داع فى الكلام ، وإلا كان التوكيد عبثا لافائدة فيه ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴾ فى هذا التوكيد وتكراره ما فيه من الدلالة على عظم جرم ابليس إذ فعل من ذلك مالم يفعله أحد غيره بيقين ، وكذلك قوله تعالى ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ﴾ وقول عبد الله بن مسلم الهُذَلِىّ :

لكنَّهُ شاقه أن قيل ذا رَجَبٌ　　ياليت عِدَّةَ حول كلّه رَجبا

كم حرَّةٍ دُرَّةٍ قد كنتُ آلَفُها　　تَسدُّ من دونها الأبوابَ والُحجبا

قد ساغ فيه لها مشى النهارِ كما　　ساغ الشرابُ لعطشانٍ إذا شربا

وقول جميل :

لا لا أبوحُ بحبِّ بَثْنَةَ إنها　　أخذتْ علىَّ مواثقاً وعهودا

وقول بعضهم :

فإياكَ إياكَ المراءَ فإنَّهُ　　الى الشَّرِّ دعَّاء وللشرِّ جالبُ

مقام عطف البيان

ومنزلة عطف البيان فى النحو منزلة النعت ، فيؤتى به فيه للايضاح والتخصيص والفرق بينهما فيه ان هذا جامد وذاك مشتق ، أما هنا فيؤتى بعطف البيان لأغراض منها المدح أو الذم ، كالمدح فى قوله تعالى « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم مافى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم » فلا يراد من قوله (البيت الحرام) التوضيح وإنما يراد به المدح ، وقد يقصد من عطف البيان أن يأتى الكلام فيه على سبيل الاجمال ثم التفصيل ، ويكون هذا فى مثل تقديم الصفة وجعل الموصوف عطف بيان لها ، كما فى قول النابغة الذُّبيانىّ :

والمؤمنِ العائذاتِ الطَّيرَ يمسحها　　رُكبانُ مكةَ بين الغيلِ والسَّنَدِ

ما إنْ أتيت بأمرٍ أنتَ تكرَهُهُ　　إذنْ فلا رفعتْ سوطا الىَّ يدى

مقام البدل

والبدل شأنه هنا شأن التوكيد ، فليس للنحو منه إلاحظ الاعراب ، لأنه يأتى على نية تكرار العامل فيكون اسناده أقوى من غيره ، وفيه مع هذه مزية الاجمال ثم التفصيل السابقة فى عطف البيان ، ولولا هذا وذاك لأمكن أن يقال فى قولك (جاء القوم أكثرهم) جاء أكثر القوم وهكذا ، واذا كان هذا شأن البدل فانه لايصار اليه فى الكلام الا عند وجود مايدعو اليه فيه كالتوكيد ، مثل قوله تعالى « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » فانه يراد من هذا الاهتمام

بشأن الحج بسبب تكرير الإسناد فيه مرتين ، وكذلك الاشارة الى أن له تعلقا بجميع الناس بحيث لا يسقط عنهم إلا اذا قام به بعضهم ، ومن ذلك قوله تعالى ( ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ) وقول النابغة الجعدى :

بلغنا السماء مَجْدُنا وسناؤنا ... وإنا لنبغى فوقَ ذلك مَظْهَرا

الخلاف فى بدل الغلط

وقد قيل إن بدل الغلط لا يدخل معنا هنا لأنه لا يقع فى فصيح الكلام ، والحق أنه قد يقع أيضا فى فصيح الكلام ، وهذا اذا كان بدل بَدَاء ، وهو أن تذكر المبدل منه عن قصد ثم تذكر البدل بعده فتوهم أنك غالط لقصد المبالغة والتفنن ، وشرطه أن يرتقى فيه من الأدنى الى الأعلى ، وحكم هذا البدل حكم العطف ببل كما فى قول بعضهم :

ألمْعُ برقٍ سَرَى أمْ ضوءُ مصباحِ ... أم ابتسامتها بالمنظر الضاحِى

ومن هذا البدل قول ذى الرُّمَّة :

لَمياءُ فى شفتيها حُوَّةٌ لَعَسٌ ... وفى اللِّثاتِ وفى أنيابها بَرَدُ

فاللعس بدل غلط من الحوة لأن الحوة السواد واللعس سواد يشوبه حمرة

مقام عطف النسق

وأما عطف النسق فحظ علم النحو فيه التشريك فى الاعراب فى سائر حروفه والتشريك فى الحكم فى بعضها ، وحظ علم المعانى منه افادة هذا مع قصد التفصيل فى المسند اليه أو المسند والاختصار فى اللفظ ، ولا يكون هذا الا لدواع فى الكلام

مقام الواو

لا شأن للنحو بها ، أما افادة التفصيل فى المسند اليه فيكون بالواو كقولك ( جاء زيد وعمرو وخالد ) والاختصار فى هذا أن العطف يغنى عن تكرير الفعل ( جاء زيد جاء عمرو جاء خالد ) وللتفصيل فى المسند اليه مقامه ، وللاختصار فى ذلك مقامه أيضا ، وهذا كما فى قوله تعالى ( فالتقطه آل فرعون ليكونَ لهم عدواً وحزنا ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ) فقد اقتضى المقام ذكر فرعون وهامان على التفصيل فعطفا بالواو لأن تبعة ذلك تقع عليهما ، وهما السبب فى خطأ

جنودهما ، ثم عطفت الجنود عليهما على سبيل الاجمال ، لأنه لا يتعلق فيهم غرض بالتفصيل ، وفى الآية تفصيل بالواو أيضاً فى خبر يكون ، لأنها قد تأتى أيضا لِتفصيل المسند وان كان يمكن الاستغناء عنها فى غير المسند اليه ، وسيأتى هذا فى باب الفصل والوصل

مقام الفاء وثم وحتى

أما تفصيل المسند مع الاختصار فيكون فى العطف بالفاء وثم وحتى ، كما فى قولك ( جاء زيد فعمر فخالد ) فان هذا يغنى عن قولك ( جاء زيد وجاء عمرو بعده وجاء خالد بعدهما ) ولا شك أن فى هذا تفصيلا أيضا فى المسند اليه ، ولكنه غير مقصود هنا كما يقصد فى الواو

وهاهنا أمر لابد من التنبيه اليه فى هذه الحروف ، وهو أن الواو بدلالتها على مطلق الجمع يمكن أن تحل فى كل موضع مكان غيرها من هذه الحروف ، فلا بد فى مراعاة ذلك من تدقيق فى صوغ الكلام تتفاوت به درجاته فى البلاغة ، وهذا كما فى قوله تعالى : « والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين » فلو قال قائل فى موضع هذه الآية : الذى يطعمنى ويسقين ويمرضنى ويشفين ويميتنى ويحيين . لكان للكلام معنى تام ، ولكنه لا يكون كمعنى الآية ، لأن كل شىء فيها قد عطف بما يناسبه ، ووقع موقع السداد منه ، فالأول عطف بالواو التى هى لمطلق الجمع ، وقدم فيه الاطعام على الاسقاء ، لمراعاة حسن النظم ، والثانى عطف بالفاء لأن الشفاء يعقب المرض بلا زمان خال من أحدهما ، والثالث عطف بثم لأن الاحياء للبعث يكون بعد الموت بزمان طويل . ومن هذا أيضاً قوله تعالى « قتل الانسان ما أكفره ، من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم اذا شاء أنشره » وقوله « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين »

مقام بل ولا ولكن

ومقام بل ولا ولكن لرد السامع عن الخطأ فى الحكم الى الصواب مع الاختصار أيضا ، وهى من أدوات القصر على ماسبق ، بل فائدة القصر فيها أظهر من فائدة العطف ، فلا معنى لاطالة الكلام عليها هنا

مقام أو وإما

وأو وإمّا موضوعان لافادة الشك أو التخيير أو الاباحة ، ولكنهما قد يستعملان فى مقام لاشك فيه . وهذا اذا كان المتكلم يريد تشكيك السامع ليجعل هذا وسيلة الى بلوغ اليقين ، وإيصال الحق الى المخالفين على وجه لايثير غضبهم ، لينظروا فيه فيؤديهم النظر الى العلم به ، وهذا كما فى قوله تعالى « قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » وقد يحمل هذا على ارادة الابهام لا التشكيك ، وهما يتحدان فى افادة هذا الغرض ، وقد يكون للابهام أعراض أخرى غيره ، ومن ذلك أيضا قوله تعالى : « وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم » . وقول توْبة ابن الحُمَيّر :

وقد زعمتْ ليلى بأنّى فاجرٌ لنفسى تُقاها أو عليها فجورُها

وقيل إن أو فى هذا بمعنى الواو ، أى وعليها فجورها

التقييد بحروف الجر

والتقييد بحروف الجر لايخلو أيضا من اسرار ولطائف فى ايثار بعضها على بعض ، وهذا عند مايبدو للنظر أنه يجوز حرف منها فى مكان الآخر ، وأكثر الناس يضعون هذه الحروف فى غير مواضعها ، فيجعلون ماينبغى أن يجر بعلى مجرورا بفى وهكذا ، ومنهم من وصل به الأمر الى أن يزعم أن هذه الحروف ينوب بعضها عن بعض ، ومن هذا أنهم يقولون ان فى للوعاء وعلى للاستعلاء نحو ( زيد فى الدار وعمرو على الفرس ) ولكنهم اذا أرادوا استعمالها فى غير هذين الموضعين مما يشكل استعماله عدلوا فيهما عن الأولى بهما ، ومما يشكل فى هذا قوله تعالى « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » ألا ترى الى بداعة هذا المعنى المقصود لمخالفة حرف الجر هاهنا ، فانه انما خولف بينهما فى الدخول على الحق والباطل

لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركض به حيث شاء ، وصاحب الباطل كأنه منغمس في ظلام منخفض فيه لا يدرى أين يتوجه ، وهذا معنى دقيق قلما يراعى مثله فى الكلام ، ومن ذلك أيضا قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » فقد عدل فى الأربعة الأخيرة عن اللام الى فى للايذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكرهم باللام ، لأن فى للوعاء فتدل على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات كما يوضع الشيء فى وعائه ، وتكرير فى بعد ذلك للايذان بترجيح سبيل الله على الرقاب والغارمين ، لأنه أوكد فى استحقاق النفقة فيه ، وهذه الاسرار واللطائف لا تكاد توجد الا فى القرآن الكريم ، فاعرفها وقس عليها

التقييد بالشرط

والتقييد بالشرط كالتقييد بحروف الجر له اعتبارات نحوية ظاهرة تعرف بمعرفة مابين أدواته من الفروق فى معانيها النحوية ، ولكن بعض هذه الأدوات لا يخلو اعتباره من أسرار ولطائف يزيغ فيها كثير من الخاصة عن الصواب لأن هذه الأدوات كثيراً مايستعمل بعضها مكان بعض ، فيظن أنه لا فرق بينها فى ذلك ، وأنها لاتجرى فيه وراء اعتبارات دقيقة ، وهذه الأدوات هى إنْ واذا ولو

مقامات ان واذا

فأما إن فهى تدل على الشك فى شرطها ولهذا يغلب استعمالها فى الأحكام النادرة الوقوع ، ويغلب فى شرطها أن يكون مضارعاً ، وأما اذا فتدل على الجزم بشرطها ولهذا يغلب استعمالها فى الأحكام الكثيرة الوقوع ، ويغلب فى شرطها أن يكون ماضيا ، وإن كانت تقلبه الى الدلالة على الزمن المستقبل ، ومن هذا قوله تعالى (فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ) أتى فى جانب الحسنة بلفظ اذا لأنها كانت كثيرة الوقوع لهم ، ولهذا عرفت تعريف الجنس الدال على الاطلاق والشيوع وأتى في جانب السيئة بان لأنها كانت نادرة بالنسبة الى الحسنة المطلقة ، ولهذا أتى بها على سبيل التنكير الدال على الوحدة ، وكذا قوله تعالى ( واذا أذقنا الناس رحمة

فرحوا بها وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم اذاهم يقنطون ) وإنما نكرت الرحمة هنا للاشارة الى أن قليلا منها يفرحهم ذلك الفرح المذموم ، كما أن قليلا من السيئة يحملهم على ذلك القنوط المذموم أيضا

وهذه الاعتبارات الدقيقة قلما تراعى فى غير القرآن الكريم ، وكثيراً مايخطىء فيها الشعراء والبلغاء ، كما أخطأ فى ذلك عبد الرحمن بن حسّان وقد سأل بعض الولاة حاجة فلم يقضها له ، ثم شفع له فيها فقضاها فقال :

ذُممتَ ولم تُحمَدْ وأدركتُ حاجتى ... تولّى سواكم أجرها واصطناعها

أبى لك كسبَ الحمد رأىٌ مُقصِّرٌ ... ونفسٌ أضاق الله بالخير باعها

إذا هى حثته على الخير مَرةً ... عصاها وإن همّتْ بشر أطاعها

فلو عكس لأصاب غرض الهجاء الذى يقصده ، وقد قيل انه يقصد الجزم بأن نفسه تحثه على الخير ولكنه يعصيها ، وهذا أبلغ فى الذم ، كما يقصد أنه يبادر الى الشر بمجرد توهم نفسه له ، وهو أبلغ فى ذمه أيضا

استعمال ان فى مقام اذا

وقد تستعمل إن مع شرط مقطوع به لأغراض منها قصد التوبيخ ، لأن الشرط لاشتماله على ما يقلعه عن أصله لايصح الا لفرضه كما يفرض المحال ، ومن هذا قوله تعالى ( أفنضرب عنكم الذكر صفحا إن كنتم قوما مسرفين ) على قراءة الكسر فان اسرافهم محقق الوقوع ، ويراد التوبيخ والتجهيل على ارتكابه وتصوير أن الاسراف من العاقل فى مثل هذا لايصح وقوعه ، ويشك فى صدوره منه

ومنها تغليب الشاك على غيره ، كما فى قوله تعالى ﴿ وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين ﴾ غاب من يشك فى ريبه من المنافقين الذين كانوا يظهرون خلاف مايبطنون على من يقطع بريبه من غيرهم ، وقد جرى أسلوب القرآن على هذا وان كان الشك لايتصور فى حق الله تعالى لأنه وارد على أساليب كلامهم ، فيأتى فى هذا على ماينبغى أن يعتبر فيه على فرض أنه لمخلوق يجوز عليه الشك والجزم ، ويجوز أن يكون الاتيان بان فى الآية للتوبيخ لا للتغليب

ومنها مجاراة الخصم لالزامه بما ينكره ، مثل قوله تعالى ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ فالشرط هنا مقطوع بنفيه ، ولكن قصد فرضه مجاراة للخصم ليكون هذا سبباً فى إلزامه

استعمال اذا فى مقام ان

وقد تستعمل إذا مع شرط غير مقطوع به لأغراض منها : تنزيل غير الجازم منزلة الجازم ، ومنها تغليب الجازم على غير الجازم ، ومنها قصد التوبيخ على الشك فى الشرط لأنه لا ينبغى أن يكون ، واستعمال إذا فى هذه المقامات قليل ونادر الوقوع فى كلام البلغاء

استعمال الماضي شرطا لان

ولا يستعمل الماضى شرطا لإن إلا لأغراض منها الرغبة فى وقوعه مثل قوله تعالى ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم ﴾ ومعنى اظهار الرغبة منه تعالى اظهار كال رضاه ، أو اظهار كون الشيء مرغوبا فى ذاته

ومنها قصد التعريض مثل قوله تعالى ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك اذاً لمن الظالمين ﴾ ولا شك أن التعريض بهم فى الآية يثبت مع الاتيان بالمضارع أيضا ، ولكن الماضى أدل عليه لأن الاشراك لم يقع منه فيكونون هم المقصودين به قطعا ، بخلاف المضارع لأن التهديد بذلك على الاشراك فى المستقبل قد يحمل عليه ، وإن كان حمله عليه بعيداً كل البعد

وقد تستعمل إن فى الماضى لفظا ومعنى استعمالا لغوياً لا يحتاج الى مراعاة غرض من هذه الأغراض ، ويطرد هذا مع كان ، ويقل فى غيرها ، مثل قوله تعالى « ان كنت قلته فقد علمته » ومثل قول أبي العلاء :

فياوطنى إن فاتنى بك سابقٌ  من الدَّهرِ فَلْيَنْعَمْ لسا كنك البالُ

وقد تستعمل إذا فى الماضى لفظا ومعنى أيضا ، كما فى قوله تعالى : « حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطرا »

مقامات لو

ولو تستعمل فى اللغة للدلالة على امتناع الجزاء لامتناع الشرط ، ويجب فى شرطها وجوابها أن يكون كل منهما فعلا ماضيا ، وهذا المعنى هو الشائع فى استعمال البلغاء ، مثل قول أبى العلاء :

ولو دامتِ الدَّوْلاتُ كانوا كغيرهم رعايا ولكنْ ما لهنَّ دوامُ

وقد تستعمل للدلالة على العلم بامتناع الشرط لأجل العلم بامتناع الجواب ، وهذا المعنى فيها هو الذى اعتمد عليه علماء المنطق ، وقد شاع فى مقامات الاستدلال العقلى ، كما فى قوله تعالى « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون »

استعمال المضارع شرطا للو

وقد تدخل لو على المضارع لأغراض منها تنزيله منزلة الماضى لصدوره عمن لا خلاف فى إخباره ، كما فى قوله تعالى « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين » فان المترقب فى أخبار الله تعالى بمنزلة المقطوع به

ومنها قصد الاستمرار فى الماضى حينا فحينا ، كما فى قوله تعالى « واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حببَ اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون » فانما قال يطيعكم ولم يقل أطاعكم للدلالة على أنه كان فى ارادتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه ، وأنه كلما عنّ لهم رأى يعمل به ، بدليل قوله فى كثير من الأمر

مقامات الاطلاق

والاطلاق كما سبق ترك التقييد ، فهو ضرب من ضروب الحذف والايجاز ، ولكنه خاص بالصفة تحذف لوجود ما يدل فى الكلام عليها ، وما الى هذا من ضروب القيود السابقة ، كما فى قوله تعالى « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » فالمراد كل سفينة صحيحة ، وانما أطلقها ولم يقيدها بهذا لأن ما قبله يدل عليه ، ومثل هذا قول أبى ذؤيب الهذلى :

سبقوا هَوىً وأعنقوا لهواهُمُ ... فتخرّموا ولكل جنب مَصْرعُ

أى مصرع مقدر ، ومثله أيضا من ترك التقييد بالعطف قوله تعالى « والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » فالمراد تقيكم الحر والبرد ، وقد اكتفى بالأول عن الثانى لعلمه منه

---

# احوال الجمل

## ١ — الوصل والفصل

سئل بعض البلغاء عن البلاغة فقال ( هى معرفة الفصل من الوصل ) فقصرها على معرفة ذلك للتنبيه على مزيد غموضه ، وأنه فن منها عظيم الخطر دقيق المأخذ لا يكمل أحد فيه إلا كمل في سائر فنون البلاغة

تعريف الوصل والفصل

والوصل هو العطف بالواو لجملة على أخرى لا محل لها من الاعراب ، والفصل هو ترك العطف بالواو لجملة على أخرى لا محل لها من الاعراب ، فلا يأتيان فى المفردات ولا فى الجمل التى لها محل من الاعراب ولا فى العطف بغير الواو من حروف العطف ، وهو مذهب عبد القاهر وكثير من المتقدمين ، وذهب السكاكى وكثير من المتأخرين الى أنهما يجريان فى ذلك كله ، والحق مذهب عبد القاهر ومن تبعه

ابطال اتيانهما فى المفردات ونحوها

فأما أنهما لا يأتيان فى المفردات ولا فى الجمل التى لها محل من الاعراب ، فلأن الأمر فى عطفها يجرى وراء قصد التشريك فى الحكم ، فهو عطف نحوى صرف يجب عند هذا القصد ، ولا يتوقف على الجامع الآتى المعتبر هنا ، وقد أجاز الفارسى وابن عصفور حذف حرف العطف فى ذلك ، كما فى قول الشاعر :

كيف أصبحتَ كيف أمسيتَ مِمّا ... يزرعُ الودَّ فى فؤادِ الكريمِ

ولكن حذف حرف العطف فى هذا ليس من الفصل المقصود هنا ، لأنه مقدر فى الكلام والمقدر فيه كالثابت ، وهذا في غير الصفات المتتابعة ، أما فيها فالأكثر ألا يعطف بعضها على بعض كما فى قوله تعالى « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا » ويجوز عطف بعضها على بعض خصوصاً إذا كانت متقابلة ، ولهذا حسن العطف في قوله ( ثيبات وأبكارا ) ومن العطف فى ذلك قول الشاعر :

الى الملكِ القَرْمِ وابن الهمامِ ... وليْثِ الكتيبة فى المُزْدَحَمْ

وقد تحسن مراعاة المناسبة فى عطف المفردات إذا لم يجر الأمر فيها على الحقيقة بل جرى على الخيال الشعرى ، ولكن هذا يرجع كما سيأتى الى اعتبارات بديعية ولهذا عيب على أبى نواسٍ قوله :

وقد حلفتُ يميناً ... مبرورةً لا تكذبْ

بربِّ زمزمَ والحوْ ... ضِ والصفا والمُحَصَّبْ

فان ذكر الحوض مع زمزم والصفا والمحصب غير مناسب ، وإنما يذكر الحوض مع الصراط والميزان وما جرى مجراها ، ومن ذلك أيضا أنه اجتمع نُصَيْبٌ والكُمَيْتُ وذو الرُّمّة فأنشد الكميت :

أمْ هل ظعائنُ بالعلياء رافعةٌ ... وإن تكامل فيها الدَّلُّ والشَّنَبُ

فعقد نُصَيْبٌ واحدة ، فقال له الكُمَيْتُ ماذا تحصى ؟ فقال خطأك فانك تباعدت فى القول ، أين الدل من الشنب ؟ ألا قلت كما قال ذو الرُّمّة :

لمياءُ فى شفتيها حُوَّةٌ لَعَسٌ ... وفى اللثاتِ وفى أنيابها بَرَدُ

فالدَّل يذكر مع الغَنَج وما أشبهه ، والشَّنب يذكر مع اللَّعس وما أشبهه ، ولا يخفى أيضاً أن هذا كله لا يجرى على اعتبار الوصل والفصل بالاتيان بالواو وتركها

بل يجرى على اعتبار الاتيان بألفاظ يناسب بعضها بعضا بقطع النظر عن كونها موصولة أو مفصولة

ابطال اتيانهما فى غير الواو

وأما أنهما لا يأتيان فى غير الواو من حروف العطف فلأن تلك الحروف تأتى لمعانيها المعروفة فى علم النحو ، ولا تفيد ماتفيده الواو هنا من معنى الوصل ، فمتى تحققت معانيها النحوية عطف بها ولو لم يوجد معها الجامع المعتبر هنا ، ولذلك يصح لك أن تقول ( خرجت من المنزل فأمطرت السماء ) ولا يصح لك أن تقول ( خرجت من المنزل وأمطرت السماء ) لأنه لا جامع بين إمطار السماء والخروج من المنزل

والحقيقة أن الواو تفيد هنا معنى غير ما تفيده فى الحو ، فهى تفيد فى النحو التشريك فى الحكم كما فى قولك ( قام زيد وعمرو ) ولا بد من ذكرها أو تقديرها فيه وإلا حمل الكلام على الاضرب لا على العطف ، أما هنا فلا حكم بين الجملتين اللتين تصل بينهما الواو حتى يمكن أن يقال انها تفيد التشريك بينهما فيه ، فهى فى هذا أداة وصل لاغير ، وهذا المعنى فيها لا يفيده غيرها من حروف العطف

الاختلاف فى الخبر والانشاء اعتبار نحوى

وكذلك الفصل للاختلاف فى الخبر والانشاء حكم نحوى لا يصح أن يعد فى اعتبارات الفصل والوصل ، فهو لا يرجع الى مقام يقتضيه حتى يصح أن يذكر فى هذا العلم ، وإنما يرجع الى منع جمهور النحويين له ، وقد أجاز سيبويه عطف الجملتين المختلفتين بالاستفهام والخبر مثل أن تقول ( هذا زيد ومن عمرو ؟ )

كمال الاتصال اعتبار نحوى أيضا

ومثل هذا الفصل لما يسمونه كمال الاتصال ، وهو أن تكون الجملة الثانية تأكيداً للاولى أو بدلا منها أو عطف بيان لها ، فترك العطف فى هذا لا يرجع الى مقام يقتضيه ، وإنما يرجع الى امتناع العطف فى النحو بين التأكيد والمؤكد والبدل والمبدل منه ، والبيان والمبين ، لأن العطف يقتضى التغاير بين المعطوفين والتأكيد عين المؤكد ، وكذلك عطف البيان والبدل ، ولا فرق فى هذا بين العطف فى الجمل والمفردات ، وكما أنه لا يصح أن يقال إن هناك فصلا فى تأكيد المفردات ونحوه ، لا يصح أن يقال إن هنا فصلا فى تأكيد الجمل ونحوه ، وأما

ما يسمونه عطف تفسير مما ليس فيه مغايرة بين المعطوفين فليس من أسلوب البلغاء، وإنما يأتى فى أسلوب المؤلفين وأشباههم، وقيل إن الواو فيه حرف تفسير لا عطف، ومن هذا قول عدى بن زيد:

وَقَدَّدَتِ الأَدِيمَ لِرَاهِشَيْهِ ... وَأَلْفَى قولها كذباً وَمَيْنَا

وقول الآخر:

ألا حَبَّذَا هندٌ وأرضٌ بها هندُ ... وهندٌ أتى من دونها النَّأْى والبُعْدُ

وهذا بخلاف قوله تعالى ﴿ أولى لك فأولى، ثم أولى لك فأولى ﴾ فقد ذهب الزمخشرى إلى أنه تأسيس لا تأكيد، لأنه جعل الجملة الثانية أبلغ فى الانذار من الأولى، فالتغاير بين الجملتين ظاهر كما ترى

مقامات الوصل

وللوصل مقامان: أولهما دفع الايهام، كما روى أن هارون الرشيد سأل وزيره عن شىء فقال لا وأيدك الله، وقد قال الصاحب بن عبَّاد: هذه الواو أحسن من الواوات فى خدود الملاح، ووجه حسنها أنه بدونها يكون ظاهر الكلام أنه دعاء على المخاطب لا دعاء له، ومن الممكن دفع هذا التوهم بالسكوت بعد لا، ولكنه لا يغنى فى هذا غناءها، ولا يكون له حسنها، والجملة الأولى فى هذا المثال خبرية والثانية انشائية، وقد تكون الجملتان فى ذلك خبريتين، كما تقول لمن سألك هل تصاحب زيدا (لا وتركت صحبته) وقيل انه لا يصح الوصل بالواو فى هذا ويجب أن يقال (لا قد تركت صحبته)، وثانيهما أن يكون بين الجملتين جامع خاص غير اتفاقهما فى الغرض العام الذى يساق له الكلام، بشرط ألا يمنع من الوصل مانع مما سيأتى فى مقامات الفصل، وهـذا الجامع يكون إما بوجود اتحاد بين الجملتين فى المسند اليه أو المسند أو قيد من قيودهما، وإما بوجود تماثل بينهما فى ذلك بالاتفاق في وصف اخوة أو صداقة أو نحوهما، وإما بوجود تضايف بينهما فى ذلك كالأبوة مع البنوة والعلو مع السفل وهكذا، وإما بوجود شبه تماثل بينهما فى ذلك كلون بياض وصفرة ونحوهما، وإما بوجود تضاد بينهما فى ذلك

أو شبه تضاد كالسواد والبياض والأرض والسماء ، واما بوجود تقارن بينهما في الخيال لسبب من الأسباب ، ومن الوصل لاتحاد الجملتين في الاسناد قول حافظ ابراهيم :

قُمْ يا ابن مِصْرَ فأنت حُرٌّ واستَعِدْ     مَجْدَ الجُدُودِ ولا تَعُدْ لمِرَاحِ

وقول شوقي :

يافتيةَ النِّيل السعيد خُذُوا المَدَى     واستأنفوا نَفَسَ الجهادِ مَديدا

وقول الآخر :

أخطُ مع الدهر إذا ما خَطَا     واجرِ مع الدهر كما يَجْرى

ومن الوصل للتماثل بالاتفاق فى الاخوة قوله تعالى ﴿ ارجعوا إلى ابيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ﴾ وقول الشاعر :

بَنُونا بَنُو أبنائنا وبناتُنا     بنوهُنَّ أبناء الرِّجال الأباعِدِ

ومن الوصل للتضايف قول الشاعر :

بادِرْ إلى الفرصة وانهض لما     تريد فيها فهى لا تَلْبَثُ

فان المبادرة الى الفرصة والنهوض الى المراد متلازمان فى التعقل ، وكذلك قوله تعالى ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ﴾

ومن الوصل لشبه التماثل قول الصاحب بن عَبَّاد :

رَقَّ الزُّجاجُ وراقت الخمرُ     فتشابها فتشاكل الأمرُ

فكأنما خمرٌ ولا قدحٌ     وكأنما قدحٌ ولا خمرُ

ومن الوصل للتضاد قول الشاعر :

المرء يأمل أن يعيـ     شَ وطولُ عيش قد يَضُرُّهْ

تفنى بشاشته ويبـ     قى بعد حُلْوِ العيش مُرُّهْ

ومن الوصل للجامع الخيالى قول الأرجاني :

فبتُّ من وصلك فى لذةٍ حتى جلا الصبحُ مُحيّاهُ

والنجمُ قد أطبق أجفانهُ والنومُ قد أطلق أسراه

والليلُ سيفُ الفجر فى فرقهِ يقتله والديك ينعاه

هذا ومما يزيد به الوصل حسنا فى هذا كله اتفاق الجملتين فى الاسمية والفعلية ، ولا يكون هذا الا اذا كان المقصود من كل منهما الثبوت أو التجدد ، وإلا وجب اختلافهما فى ذلك ، ومن اتفاقهما فيه قول الشاعر :

أسودٌ اذا ما أبدتِ الحربُ نابها وفى سائر الدهر الغيوثُ المواطرُ

وقول الآخر :

أعطيتَ حتى تركتَ الريحَ حاسرةً وجُدْتَ حتى كأنَّ الغيثَ لم يَجُدِ

ومثل هذا تناسبهما فى الاطلاق والتقييد ، والتناسب فى الاطلاق كثير ، ومن التناسب فى التقييد قول الشاعر :

دنوتَ تواضعا وعلوتَ مجداً فشأناك انحدارٌ وارتفاعُ

وقول الآخر :

تنامُ عينى وعين الليل ساهرةٌ وتستحيل وصِبْغُ الليل لم يَحُلِ

مناسبات خفية

وقد تخفى المناسبة بين الجملتين الموصولتين كما فى قوله تعالى « ويسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون » فأى ارتباط بين أحكام الأهلة وبين حكم إتيان البيوت من ظهورها . والجواب على هذا من وجوه :

أحدها : أنه لما ذكر أنها مواقيت للحج وكان من عادتهم اذا أحرموا لم يدخلوا بيتا ولا خيمة ، بل إن كانوا من أهل المدر نقبوا من ظاهر بيوتهم ، وإن كانوا من أهل الوبر خرجوا من خلف الخيمة ، فلما ذكر أنها مواقيت للحج ناسب أن

يفجيهم الى هذه البدعة في الاحرام به . وثانيها أنه عطف على محذوف كأنه قيل فدعوا السؤال فى أفعال الله التى لا تخلو من الحكمة والموعظة ، وانظروا فى أمر تفعلونه ولا حكمة فيه . وثالثها أن يكون وارداً على جهة التمثيل لما هم عليه من قلب الأسئلة والتعنت فيها ، كأنه قيل مثلكم فى هذا السؤال كمثل من ترك باب الدار ودخل من ظهرها

ومن هذا ما يسمونه عطف القصة على القصة أو عطف مضمون كلام على مضمون كلام قبله ، فتعتبر فيه المناسبة بين القصتين وان اختلفا فى الخبرية والانشائية ونحوهما ، كما فى قوله تعالى « فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ، وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون » فقد قال الزمخشرى فى قوله وبشر : فان قلت علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهي يصح عطفه عليه ، قلت : المراد ليس الذى اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من أمر أو نهى يعطف عليه ، انما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين ، فهى معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين كما تقول ( زيد يُعاقَبُ بالقيد والارهاق وبشر عمراً بالعفو والاطلاق ) ثم جوز أن يكون معطوفا على قوله فاتقوا ، كما تقول : ( يا بنى تميم احذروا عقوبة ما جنيتم وبشر يا فلان بنى أسد باحساني اليهم ) وجوز الخطيب أن يكون معطوفاً على محذوف تقديره فأنذرهم بذلك وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . .

ومن عطف مضمون كلام على آخر قوله تعالى : « وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا الى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ، ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين » فالمعطوف هنا مجموع قوله : وما كنت ثاويا ، الى قوله : ولكنا كنا مرسلين ، وهو

معطوف على قوله : وما كنت بجانب الغربى الى قوله العمر ، ولا يصح عطف قوله وما كنت ثاويا على قوله فتطاول عليهم العمر ، لأن هذا يقتضى دخوله فى معنى لكن فيصير المعنى ولكنك ما كنت ثاويا وهو باطل ، وكذلك لا يصح عطفه على قوله وما كنت من الشاهدين ، لأنه يجب حينئذ أن ينوى به التقديم على الاستدراك الأول ، ويكون نظم الآية كما تقول ( ما جاءنى زيد وما خرج بكر لكن عمراً حاضر ولكن أخاك خارج ) وهو باطل أيضا ، لأن لكن لا يصح أن تزال عن موضعها ، وسبيلها فى هذا سبيل إلا

مقامات الفصل

وللفصل ثلاثة مقامات : أولها ألا يكون بين الجملتين جامع مما سبق ، مثل قول أبى العتاهية :

الفقرُ فيما جاوز الكفافا　　　من اتَّقى الله رجا وخافا

فالجملتان هنا متفقتان فى الغرض العام الذى جمع بينهما فى الكلام ، وهو مما يجب مراعاته فى الكلام حتى فى مقام الفصل ، ولكنهما لم يوجد فيهما ارتباط بين المسند اليه أو المسند أو قيد من قيودهما على ما سبق ، ففصل بينهما لهذا مع اتفاقهما فى أن كلا منهما حكمة من الحكم المسرودة فى هذه المزدوجة ، ومنها فى ذلك أيضا :

يغنيك عن كلِّ قبيح تركه　　　يَرْتَهِنُ الرأىَ الأصيلَ شكُّهُ

وقد يوجد الجامع بين الجملتين ولكن يفصل بينهما لاختلاف سياق الكلام ، كقوله تعالى « الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ، ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » فلم يعطف قصة الكافرين على قصة المؤمنين مع وجود الجامع وهو التضاد ، لأن هذا الكلام مسوق لبيان حال الكتاب قصداً ، وذكر حال المؤمنين ليس مقصودا على سبيل الاصالة

ثانيها أن تكون الجملة الثانية جوابا عن سؤال اقتضته الاولى ، فتفصل الثانية عن الاولى كما يفصل الجواب عن السؤال ، ولكنه لا يصار الى تنزيل السؤال المفهوم من الكلام السابق الا لاعتبارات لطيفة ، منها إغناء السامع عن أن يسأل ، ومنها القصد الى الايجاز ونحو هذا ، وتسمى الجملة الثانية فى هذا الضرب من الفصل استئنافا ، وقد يسمى الفصل نفسه بهذا أيضا ، والسؤال الذى تتضمنه الجملة الاولى إما أن يكون عن سبب عام كما فى قول الشاعر :

قال لى كيف أنتَ قلتُ عليلُ     سهرٌ دائمٌ وحزن طويلُ

كأنه قيل ما بالك عليلا أو ماسبب علتك ؟ ومثله قول أبى العلاء :

وقد غَرِضْتُ من الدنيا فهل زَمَنِى     مُعْطٍ حياتى لِغِرٍّ بَعْدُ ما غَرِضا

جَرَّبْتُ دهرى وأهليه فما تركتْ     لىَ التجاربُ فى ودُّ امرىء غَرضا[1]

كأنه قيل ما بالك غرضت أو ما سبب ضجرك ؟

و إما عن سبب خاص مثل قوله تعالى (وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم) كأنه قيل هل النفس أمارة بالسوء فقيل نعم إنها أمارة بالسوء ، وهذا الضرب يقتضى تأكيد الحكم كما سبق فى الكلام على التأكيد

و إما عن غيرهما كما فى قوله تعالى ( ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ) كأنه قيل فماذا قال ابراهيم فى رد سلامهم ؟ ومن هذا قول الشاعر :

زعم العواذلُ أننى فى غَمْرَةٍ     صدقوا ولكن غمرتى لا تَنْجَلِى

كأنه قيل فهل صدقوا فى هذا أم كذبوا ؟

وقد يحذف صدر الاستئناف كما فى قوله تعالى ( فى بيوت أذن الله أن ترفع

---

(١) غرضت ضجرت وكذلك غرض فى آخر البيت الاول ، وبعد متعلق به مقدم عليه

ويذكر فيها اسمه يسبّح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار) على قراءة يُسَبَّحُ بالبناء المفعول ، كأنه قيل من يسبحه ؟ فقيل يسبحه رجال ، وقد يحذف الاستئناف كله ويقوم ما يدل عليه مقامه ، كما فى قول مُسَاوِر بن هند :

زعمتم أنّ إخوتكم قريشٌ    لهم أَلْفٌ وليس لكم إلَافُ

كأنه قيل فهل صدقوا فى هذا أم كذبوا ؟ فقيل كذبوا لأن لهم إلفا وليس لهؤلاء الزاعمين إلف مثلهم

ثالثها دفع الإيهام كما فى قول الشاعر :

وتظن سَلْمَى أننى أبغى بها    بَدَلاً أراها في الضلال تَهِيمُ

فلم يعطف قوله أراها على قوله تظن لئلا يتوهم أنه معطوف على قوله أبغى ، فيكون من مظنونها مع أنه ليس منه ، ومن هذا قوله تعالى ( وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ) فلم يعطف قوله الله يستهزىء بهم على جملة الشرط وجوابه لئلا يتوهم عطفه على جملة قالوا أو جملة إنا معكم وكلاهما لا يصح

## ٢ — فروق الحال

فروق الحال من علم المعانى

الحال اذا كانت جملة فانها تارة تكون مقترنة بواو الحال ، وتارة لا تكون مقترنة بها ، واقترانها بهذه الواو وعدم اقترانها بها يجريان وراء اعتبارات دقيقة لا تقل فى أهميتها عن الاعتبارات التى ذكرناها فى اقتران الجملة بواو الوصل وعدم اقترانها بها ، ولكن القوم غفلوا هنا عن هذه الاعتبارات ، وسلكوا فى الكلام على فروق الحال مسلكا نحوياً يراد به بيان مواضع جواز الربط بهذه الواو ومواضع امتناعه بها ، فظن بعض الناس أن الكلام فى فروق الحال لا يصح أن يذكر فى هذا العلم ، لأن مثل هذا ليس من مسائله وإنما هو من مسائل النحو

مقامات الربط بالواو والضمير

والأصل فى الحال أن تكون بغير واو لأنها فى الحقيقة وصف لصاحبها ، فلا تدخل عليها الواو كما لاتدخل على النعت ، ولكن هـذا الأصل خولف فيها إذا كانت جملة ، فانها تارة تربط بالضمير وحده ، وتارة تربط بالواو وحدها ، وتارة تربط بهما معا ، وكل جملة وقعت حالا ولم تجىء بالواو فهذا كما قال عبد القاهر لايكون إلا إذا قصد الى الفعل الواقع فى صدرها فضم الى الفعل الأول فى إثبات واحد ، نحو قولك ( جاء زيد يسرع ) فهو بمنزلة قولك ( جاء زيد مسرعا )

وكل جملة وقعت حالا ثم اقتضت الواو فانها لا تكون إلا حيث يقصد بها استئناف خبر آخر لايقصد ضمه الى الفعل الأول فى إثبات واحد ، وهذا انما يكون عند قصد الاهتمام بهذه الحال أو إزالة شك أو إنكار فيها ، أو نحو هذا مما يقتضى الاهتمام بها ، وعدم ضمها فى إثبات واحد مع ما قبلها ، وهذا كما تقول : ( جاء زيد وهو يسرع ) فانه يفيد من الاهتمام باثبات هـذه الحال له ما لايفيده قولك ( جاءنى زيد يسرع أو مسرعا ) فلكل من هذا مقامه مما ذكرنا

الجمل الصالحة للربط بالواو

وليست كل جملة بحيث تصلح للربط بالواو ، بل بعضها يصلح للربط بها ، وبعضها يتعين ربطه بالضمير ، فلا يؤتى به فى مقام الربط بالواو ، والذى يصلح من الجمل للربط بالواو هو أولا : الجملة الاسمية ، وهى لاترى مربوطة إلا بالواو لظهور قصد الاستئناف فيها ، خصوصا اذا كان المبتـدأ فيها ضمير صاحب الحال ، نحو قولك ( جاءنى زيد وهو يسرع ) ومن ذلك قوله تعالى ( فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ) وقول امرىء القيس :

أيقتلنى والمَشْرَفِىُّ مُضاجعى ومسنونة زُرْقٌ كأنياب أغوال

فاذا جاءت الجملة الاسمية بغير واو فانما يكون هذا لتأويلها بالمفرد ، نحو قولهم ( كلمته فوه الى فِىَّ ) أى مشافها ، وقول بشّار :

اذا أنكَرتْنى بلدةٌ أو نَكِرْتُها خرجت مع البازى علىَّ سوادُ

فانه على تقدير كائنا على سواد ، فيكون سواد مرتفعاً بالظرف لا مبتدأ ، ولا

يكون إذن من الجملة الاسمية ، وكذلك ما أشبهه نحو قول أبي الصلت الثقفي في مدح سيف بن ذي يزن :

فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً في رأس غمدان داراً منك محلالا[1]

وقد يحسن مجيء الجملة الاسمية بغير واو لدخول حرف على المبتدإ ، كما في قول الفرزدق :

فقلت عسى أن تبصريني كأنما بنيّ حواليّ الأسود الحوارد

وكذلك إذا وقعت عقب حال مفردة كما في قول ابن الرومي :

والله يبقيك لنا سالماً برداك تبجيل وتعظيم

وثانيا الجملة الفعلية إذا كان فعلها ماضيا ، ولا تدخل عليها الواو إلا اذا كانت مع قد ظاهرة أو مقدرة كما في قوله تعالى « قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر ، وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء » وقول امرىء القيس :

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى الستر إلا لبسة المتفضل[2]

وقد يجيء هذه الجملة بغير الواو كما في قول أبي صخر الهذلي :

وإني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر

وقول حندج بن حندج المري :

متى أرى الصبح قد لاحت مخايله والليل قد مزقت عنه السرابيل

وثالثا الجملة الفعلية اذا كان فعلها مضارعا منفيا كما في قول مسكين الدارمي :

أكسبته الورق البيض أباً ولقد كان ولا يدعى لأب

وقول كعب بن زهير :

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب وإن كثرت في الأقاويل

---

(١) معناه كثير حلولها لكرم صاحبها

(٢) هو الذي يبقى في ثوب واحد لنوم ونحوه

وقد تجيء هذه الجملة أيضا بغير الواو كما فى قول زهير بن أبى سُلْمَى:

كأنَّ فُتَاتَ الْعِهْنِ فى كل منزلٍ نزلن به حَبُّ الْفَنَا لم يُحطَّمِ (١)

الجمل الصالحة للربط بالضمير

والجمل التى تصلح للربط بالضمير هى الجمل الفعلية اذا كان فعلها مضارعا مثبتا ، وهذه الجمل لا يصح ربطها بالواو ، بل يجب ربطها بالضمير ، وشأنها فى هذا شأن الحال المفردة ، ولهذا لا تقع إلا فى مقامها كما سبق ، ومن ذلك قوله تعالى « وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى » وقول أبى دُوَادٍ الايادِى :

ولقد أغتدى يُدَافِعُ ركنى أحْوَذِىٌّ ذو مَيْعَةٍ إضْرِيجُ (٢)

فاذا جاءت بالواو كقول عبد الله بن هَمَّام السَّلُولِىّ :

فلمَّا خشيتُ أظافيرَهُمْ نَجَوْتُ وأَرْهَنُهُمْ مالكا

فيجب تأويلها على حذف مبتدإ ، ويكون التقدير وأنا أرهنهم ، فتكون جملة اسمية لا فعلية ، وقيل إن الواو فى البيت للعطف وليست للحال ، وتقدير الكلام على هذا نجوت ورهنت ، وإنما قيل أرهنهم بلفظ المضارع لحكاية الحال الماضية

## ٣ ـ المساواة والايجاز والاطناب

الخلاف فى تفضيل الايجاز على الاطناب

وهذا الباب أيضا من أهم أبواب هذا العلم ، حتى نقل عن بعضهم أنه قال : البلاغة هى الايجاز والاطناب ، وقد اختلف فى الايجاز والاطناب أيهما أفضل من الآخر ؟ فقال أصحاب الايجاز : الايجاز قصور البلاغة على الحقيقة ، وما تجاوز مقدار الحاجة فهو فضل داخل فى باب الهذر والخطل ، وهما من أعظم أدواء الكلام ، وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصناعة . وفى تفضيل الايجاز يقول جعفر بن يحيى لكتابه : إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا

---

(١) العهن الصوف المصبوغ وفتاته ماتقطع منه والفنا عنب الثعلب

(٢) الاحوذى السريع الحاذق ، والميعة أول الجرى وأنشطه ، والاضريج السريع العدو

وقال أصحاب الاطناب : المنطق إنما هو البيان ، والبيان لا يكون إلا بالاشباع والشفاء لايكون إلا بالاقناع ، وأفضل الكلام أبينه ، وأبينه أشده إحاطة بالمعانى ولا يحاط بالمعانى إحاطة تامة إلا بالاطناب

والقول القصد فى ذلك أن الايجاز والاطناب يحتاج اليهما فى جميع الكلام ولكل منهما موضع فيه ، فالحاجة الى الايجاز فى موضعه ، كالحاجة الى الاطناب فى موضعه ، وسيأتى بيان موضع كل منهما

تعريف المساواة

والمساواة هى أن يكون اللفظ بقدر أصل المراد لا ناقصا عنه ولا زائدا عليه أو هى تأدية المقصود بما لا يزيد عن الكلام العرفى ولا ينقص عنه ، وهو كلام أوساط الناس فى مجرى عرفهم فى تأدية المعانى عند معاملاتهم ومخاطباتهم فى سائر شؤونهم ، وهؤلاء الأوساط هم الذين لم يصلوا الى رتبة البلاغة ولم ينحطوا الى حالة الفهاهة ، وهم يعبرون عن مقصودهم بكلام صحيح الاعراب من غير مراعاة مايقتضيه الحال فى بلاغة الكلام

تعريف الايجاز

والايجاز هو التعبير عن المقصود بلفظ أقل منه بحيث لايقصر عن تأديته ، ولا يخل ببيانه ، وإلا كان إخلالا لا إيجازا كقول عُروة بن الوَرْد :

عجبتُ لهم إذ يقتلون نفوسهم ومقتلهم عند الوَغى كان أعذرا

فانه أراد إذ يقتلون نفوسهم فى السلم ، ولكن لفظه يقصر عن تأديته لأنه لا دليل فيه عليه ، إلا أن يقال إن الدليل فيه قوله عند الوغى ، وكقول الحرث بن حِلِّزة :

عيشى بجَدٍّ لا يَضِر كِ النُّوكُ مالاقيتِ جَدًّا
والعيشُ خيرٌ فى ظلا لِ النوكِ ممن عاش كدًّا

فانه أراد والعيش الناعم فى ظلال الحمق خير ممن عاش كدا فى ظلال العقل ؛ وقد يقال أيضا إن سياق الكلام يدل على هذا الحذف فلا يكون فيه تعقيد أيضا وكقول المُخَبَّل في الزِّبرِقان بن بدر :

وأبوكَ بدرٌ كان يَنْتَهِسُ (١) الحصى  وأبى الجوادُ ربيعـةُ بن قَبال

فقال له الزبرقان : لا بأس شيخان اشتركا فى صنعة ، وكقول الآخر :

لايرمضون إذا حَرّتْ مَشافِرُهُمْ  ولا ترى مثلهم فى الطعن مَيّالا

ويفشلون إذا نادى رَبِيئُهُمْ  ألا اركَبُنَّ فقد آنستُ أبطالا(٢)

أراد ولا يفشلون فتركه فصار المعنى كأنه ذم

تعريف الاطناب

والاطناب التعبير عن المقصود بلفظ زائد عليه لفائدة تقصد منه ، فاذا زاد عليه لغير فائدة كان تطويلا او حشواً ، والتطويل هو ما لا يتعين فيه الزائد فى الكلام كقول عَدِىّ بن زيد :

وقَدَّدَتِ الأديم لِراهِشَيْهِ  وألفى قولها كذباً ومَيْنا

وقد روى كذباً مبينا فلا يكون فيه تطويل ، وكقول الحُطَيْئَة :

ألا حبذا هند وأرضٌ بها هندُ  وهند أتى من دُونها النَّأْىُ والبعدُ

وقد سبق أن مثل هذا يحمل على عطف التفسير ، ولكن عطف التفسير ليس من أساليب البلغاء ، نعم سيأتى أن مثل هذا يغتفر لضرورة القافية

والحشو هو الذى يتعين فيه الزائد فى الكلام ، وقد يكون بحيث يفسد المعنى فيكون أمره أقبح ، كقول أبى الطيب :

ولا فَضْلَ فيها للشجاعة والنَّدَى  وصَبْرِ الفتى لولا لقاء شَعُوبِ

فان لفظ الندى حشو يفسد المعنى ، لأن المراد أنه لافضل فى الدنيا للشجاعة والندى والصبر لولا الموت ، وهذا صحيح فى الشجاعة والصبر دون الندى ، لأن الشجاع والصابر إذا علما أنهما يخلدان لم يخشيا الهلاك ودوام المكروه ، فلا يكون للشجاعة والصبر فيهما فضل ، أما الباذل فان تقدير الموت هو الذى يهون عليه البذل لا تقدير الخلود ، فيكون فضل الندى مع تقدير الخلود أظهر ، وإنما كان

(١) النهس أخذ اللحم بمقدم الاسنان
(٢) الرمض شدة الحر ، والربىء القائم فى حراسة القوم

تقدير الموت هو الذى يهون البذل ، لأن الباذل يعلم أنه لا يبقى لماله فيهون عليه بذله قبل أن يتركه ليتمتع به غيره دونه ، وعلى هذا قول طَرَفَة :

فإنْ كنتَ لا تَستطيعُ دَفْعَ مَنِيَّتى فَذَرْنى أُبادِرْها بما ملكتْ يَدى

ومن الحشو الذى لا يفسد المعنى قول أبى العِيال الهُذَلِىّ :

ذكرتُ أخى فعاوَدَنى صُداعُ الرأسِ والوَصَبُ

فذكر الرأس حشو لأن الصداع لا يستعمل إلا فيه ، وكذا قول زهير :

وأعلمُ عِلْمَ اليومِ والأمسِ قبلَه ولكنَّنى عن علمِ ما فى غدٍ عَمى

فإن قوله قبله حشو أيضا

وكذلك يجرى الأمر فى ألفاظ اعتاد الناس وصل الكلام بها ، وهذا نحو قولهم - لعمرى ، ولعمرك ، وأصبح ، وأمسى ، وظل ، وأضحى ، وبات ، وياصاحبى ، وياخليلى ، وما يجرى هذا المجرى . وأكثر ما ترد هذه الألفاظ فى الأشعار ليتم بها الوزن ، كقول أبى تمّام :

أقرُّوا لعمرى لحكم السيوفِ وكانتْ أحقَّ بفصل القضاء

فهى حشو لا فائدة فيه إلا إصلاح الوزن ، لأن القسم انما يرد لتأكيد المعنى لشك فيه أو نحوه ، وما هنا ليس مما يشك فيه ، إذ لا شك فى أن السيوف حاكمة ، وأن كل واحد يقر لحكمها ، ويذعن لطاعتها ، وكذلك قول البُحتُرى :

ما أحسن الأيامَ إلاّ أنَّها يا صاحبَيَّ إذا مضتْ لا ترجعُ

ولكن أمر هذه الألفاظ يغتفر فى الشعر ، لأنا لو عبناها على الشعراء لضيقنا عليهم ، والوزن يحوج فى بعض الأحوال اليها ، وقد ترد فى الشعر لفائدة وهو الأحسن ، كما فى قول البُحتُرىّ :

قومٌ أهانوا الوَفْرَ حتى أصبحوا أوْلَى الأنامِ بِكُلِّ عِرْضٍ وافِرِ

لأن أصبحوا فيه بمعنى صاروا لا بمعنى دخلوا فى الصباح

مقام المساواة

ومقام المساواة فى البلاغة هو مقام الاتيان بالأصل حيث لا مقتضى للعدول

عنه ؛ ولا يخفى أن مثل هذا قد سبق أنه لاقيمة له فى البلاغة ، وقد ذهب السكاكى الى أنها لاتحمد من البلغاء ولا تذم ، لأنها عنده هى الكلام العرفى الذى يجرى بين أوساط الناس ، وكلامهم عنده لايحمد منهم ولا يذم ، فما يصدر عن البليغ مساويا له لايكون بليغا مثله ، لعدم اشتماله على نكتة يعتد بها ، ولا يقدح فى هذا وقوعها فى القرآن الكريم ، لأنها اذا وقعت فيه فانما تقع فى بعض آية فقط ، ومع هذا فان وجوه البلاغة لاتنحصر فى الايجاز والاطناب ، فلا يلزم من فقد مزيتهما فى كلام ألا تكون فيه مزايا أخرى غيرهما

مواضع المساواة

وأغلب ما تكون المساواة فى كلام أوساط الناس ومن اليهم من البلغاء الذين يقرب أسلوبهم من أسلوبهم ، وهى نادرة الوقوع فى كلام غيرهم من فحول البلغاء لاسيما الشعر لبناء أمره على الايجاز ، ومن المساواة فى الشعر قول بشار :

رَبَابَةُ رَبَّةُ البيتِ تصبُّ الخلَّ فى الزيتِ
لها عشر دجاجاتٍ وديكٌ حَسنُ الصَّوتِ

وكذلك ما أنشده عبد الكريم فى اعتدال الوزن :

انما الذّلفاء هَمِّى فليلمنى من يلومُ
أحسن الناس جميعاً حين تمشى وتقوم
أصِلُ الحبل لترضى وهى للحبل صَروم

ومما جاء منها فى الشعر البليغ قول زهير :

ومهما يكن عند امرىء من خَليقةٍ وإن خالها تخفى على الناس تُعلمِ

ولا يقدح فى عده من المساواة حذف جواب الشرط فيه ، لأن اعتبار الحذف فى هذا وفى الاستثناء المفرغ ونحوهما لرعاية الاعراب ، ولا يفتقر اليه فى تأدية أصل المراد ، حتى انه لو صرح به يكون حشواً فى الكلام

ومن المساواة فى النثر البليغ قوله تعالى ( انا أعطيناك الكوثر ) وقول النبى

ﷺ ( لا تزال أمتى بخير مالم تر الأمانة مغنما والزكاة مغرما )

مواضع الايجاز والاطناب ومقاماتهما

والإيجاز مواضع يطلب فيها على العموم ، ومقامات خاصة تقتضيه فى تلك المواضع ، وكذلك الاطناب له مواضع ومقامات ، والكلام ينقسم بينهما الى قسمين : قسم يطلب فيه الايجاز كالأشعار والمكاتبات ، وقسم يطلب فيه الاطناب كالخطب والمنشورات وكتب الفتوح التى تقرأ فى ملأ من عوام الناس ، فان الكلام إذا طال في مثل هذا أثر فيهم وأفهمهم ، وعلى هذا جرى القرآن الكريم فيما يخاطب به العرب وغيرهم ، فاذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الاشارة والوحى ، واذا خاطب بنى إسرائيل وغيرهم أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطا ، فمما خاطب به أهل مكة ( إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطوب ) وقوله تعالى « إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » فى أشباه لهذا كثيرة ، وقلما تجد قصة لبنى إسرائيل فى القرآن إلا مطولة مشروحة ومكررة فى مواضع معادة ، لأنهم لم يكونوا فى العربية بحيث يلحقون الخلص من أبنائها ، وإن كان بعضهم قد تعرب بيثرب وغيرها

ويؤخذ من هذا أن الايجاز للخواص ، والاطناب مشترك فيه الخاصة والعامة [1] وقد ذهب ابن الأثير الى أن فهم العامة ليس شرطاً معتبراً فى اختيار الكلام ، والذى يجب توخيه فيه عنده أن يسلك المذهب القويم فى تركيب الألفاظ على المعانى بحيث لا يزيد كل منهما عن الآخر مع الايضاح والابانة وليس على مستعمل هذا أن يفهم العامة كلامه ، فان نور الشمس اذا لم يره الأعمى لا يكون هذا نقصا فيه ، وإنما النقص فى بصر الأعمى إذ لم يستطع النظر اليه :

عليَّ نحتُ القوافى من معادنها    وما عليَّ إذا لم تفهم البقرُ

والذى أراه فى هذا أنه تعنت ظاهر ، وأن أوساط الناس لا يصح إسقاطهم عن

(١) المثل السائر ١٩٢

لاعتبار الى هذا الحد فى أمة رشيدة

وللايجاز بعد هذا مقامات تقتضيه فى مواضعه وتزيد أمره توكيداً عند وجودها فيها ، وهى مقامات الحذف السابقة فى بابه ، وللاطناب مقامات أيضا تقتضيه فى مواضعه فتزيد أمره توكيدا ، وهى مقامات الذكر السابقة أيضا

انواع الايجاز

والايجاز نوعان : إيجاز القِصَر وإيجاز الحذف ، وإيجاز القصر يكون بكثرة المعانى مع قصر الألفاظ من غير حذف فيها ، وهذا يأتى من أن اللفظ لا يقتصر على دلالة واحدة ، بل تتنوع دلالته الى دلالة مطابقة و دلالة تضمن ودلالة التزام ودلالة على مستتبعات التراكيب من المعانى الثانوية التى يبحث عنها فى هذا العلم وهو يدل بالتضمن وما بعده على أكثر مما يدل عليه بالمطابقة

ايجاز القصر

ومن إيجاز القصر قوله تعالى « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » فانه ليس فى القرآن الكريم آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية وقوله تعالى « ولكم فى القصاص حياة يأولى الألباب لعلكم تتقون » فان قوله ( فى القصاص حياة ) اذا قيس الى ما كان عندهم أوجز كلام فى معناه ، وهو قولهم ( القتل أنفى للقتل ) وجد فيه فضل كثير عليه ، لأن عدة حروفه أقل ، وليس فيه تكرار لفظ ، وقد صرح فيه بالمطلوب وهو الحياة مع تنكيره الدال على تعظيمه ، فيكون أزجر عن القتل بغير حق ، وكذلك جمع فيه بين الحياة والقصاص وهو ضد الحياة فيكون فيه مطابقة بينهما ، وهى من المحسنات البديعية ، ومنه أيضا قول الشريف الرضى :

مَالُوا الى شُعَبِ الرِّحال وأسندوا أيدى الطِّعانِ الى قلوبٍ تَخفُقُ

فانه لما أراد أن يصفهم بالشجاعة أثناء وصفهم بالغرام عبر عن هذا بقوله ( أيدى الطعان ) وقول شوقى :

وإنما الأمم الأخلاقُ ما بقيتْ فانْ هُمُ ذهبتْ أخلاقهم ذهبُوا

وقوله أيضا :

الأمُ مدرسةٌ اذا أعددتهـا أعددتَ شعْبًا طيّبَ الأعراقِ

هذا وقد يدق الفرق بين إيجاز القصر والمساواة بخلاف إيجاز الحذف ، لأن الحذف فيه فرق ظاهر بينهما

إيجاز الحذف

وإيجاز الحذف قد يكون بحذف حرف كقوله تعالى « قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين » أى لا تفتأ تذكر ، وقول أبى مِحْجَنٍ الثَّقَفِيِّ :

رأيتُ الخمرَ صالحةً وفيها مناقبُ تهلكُ الرجلَ الحليما

فلا وَاللهِ أشربها حياتى ولا أسقى بها أبداً نديما

يريد لا أشربها فحذف لا منه لدخولها على الفعل المحذوف المفسر به ، بخلاف حذفها فى البيتين السابقين فى الاخلال بالحذف ، ومنه أيضا قوله تعالى « واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا » أى من قومه ، وقوله تعالى « رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا » أى يارب بحذف حرف النداء

وقد يكون باضمار غير مذكور للعلم به أو نحوه كقوله تعالى « فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب » أى الشمس ، وقول حاتم :

أَماوىَ ما يُغنِى الثّراء عن الفتى
اذا حشرَجتْ يوما وضاقَ بها الصدْرُ

يعنى النفس ولم يجر لها ذكر

وقد يكون بحذف مفرد كما سبق فى حذف أحد طرفى الجملة أو متعلقاتها ، مثل قوله تعالى ﴿ واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون ﴾ أى أهل القرية ، وقول البُحْتُرِىِّ فى وصف إيوان كِسْرَى :

فاذا ما رأيتَ صورةَ أنطا كِيَةَ ارتعتَ بين رومٍ وفُرْسِ

والمنايا مَواثِلٌ وأنو شِرْ وانَ يزجى الصفُوفَ تحتَ الدِّرَفْسِ (١)

(١) هو العلم الكبير

فى اخضرارٍ من اللباسِ على أشـ ـقرَ يختالُ فى صبيغـةِ ورْسِ

أى فرس أصفر ، وكقوله أيضاً :

كلُ عذرٍ من كلِّ ذنبٍ ولكن أعوزَ العذرُ من بياضِ العِذارِ

أى كل عذر من كل ذنب مقبول أو مسموع أو ما جرى هـذا المجرى ، وكقول أبى تمام :

لوْ يعلم الكفرُ كم من أعصرٍ كمنتْ له العواقبُ بين السُمْرِ والقُضُبِ

فان جواب لو محذوف تقديره لأخذ أهبة الحذار أو نحو هذا

وقد يكون بحذف جملة كقوله تعالى : « ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » أى فعل ما فعل ليحق الحق ، وقول أبى الطيب :

أتى الزمانَ بنوهُ فى شبيبته فسرَّهم وأتيناهُ على الهرَمِ

أى فساءنا

وقد يكون بأكثر من جملة ، وهو أبلغ الحذف وأحسنه ، كقوله تعالى « فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا » أى فأتياهم فأبلغاهم الرسالة فكذبوهما فدمرناهم تدميرا ، وقول الشنفرى :

لا تدفنوني إنَّ دفنى محرَّمٌ عليكم ولكن خامرى أمَّ عامرِ

أى ولكن دعونى للضبع التى يقال لها اذا أريد صيدها بعد سد جحرها عليها : خامرى أم عامر ، أبشرى بجراد عَظْلَى ، وكمرِ رجال قتْلَى [1] ، فتذل للصيد ، وتخضع لصائدها

ولا بد فى الحذف من قرينة تدل عليه كما سبق فى باب الذكر والحذف ، وأدلة قرينة الحذف

---

(١) خامرى استترى ، وعظلى يركب بعضها بعضا والكمر واحدها كمرة وهى رأس الذكر وهم يزعمون ان الضبع اذا وجدت قتيلا ألقته على قفاه ثم ركبته . وهذا المثل ( خامرى ام عامر ) يضرب للذي يرتاع من كل شيء جبنا

الحذف كثيرة منها دلالة العقل ، كقوله تعالى : « وجاء ربك والملك صفاً صفا » أى وجاء أمره ، ومنها دلالة العادة كقوله تعالى « وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم ـ الآية » أى لو نعلم مكان قتال لأنهم كانوا أخبر الناس بالحرب ، وانما يريدون أنهم يقاتلون فى مكان لا يصلح للقتال ، وكانوا قد أشاروا فى هذه الغزوة بعدم الخروج من المدينة ، ومنها دلالة الحال كقولك لمن أعرس ( بالرّفاء والبنين ) أى أعرست

أنواع الاطناب

الايضاح بعد الابهام

وللاطناب أنواع منها الايضاح بعد الابهام ، ونكتته قصد تشويق السامع الى الشىء لتمكينه فى نفسه ، كقوله تعالى : « قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى » فان قوله اشرح لى ويسر لى يفيد طلب شرح وتيسير لشىء ماله ، وصدرى وأمرى يفيد تفسيره ، والمقام يقتضى التأكيد للارسال المؤذن بتلقى المكاره والشدائد وكقول ابن المعتز :

سَقتْنِى فى ليل شبيه بشعرها ... شبيهةَ خدَّيها بغير رقيب

فمازالتُ فى ليلين شَعرٍ وظلمةٍ ... وشمسين من خمرٍ ووجه حبيب

وقول البُحترُى :

لمَّا مَشْيْنَ بذى الأراكِ تشابهتْ ... أعطافُ قضبانٍ به وقُدودِ

فى حُلتَىْ حِبَرٍ ورَوْضٍ فالتقى ... وشيانِ وَشْىُ رُبًى ووشى بُرود

وَسفرْنَ فامتلأتْ عيونٌ راقها ... وَرْدانِ وَرْدُ جَنًى وورد خُدود

وقد سمى بعضهم تفسير المثنى والجمع على نحو مافى شعر ابن المعتز والبحترى وغيرهما باسم التوشيع ، والأولى إدخاله فى الايضاح بعد الابهام تقليلا لهذه الأنواع ، ومما يدخل في هـذا النوع أيضا باب نعم وبئس على قول من يجعل المخصوص خبر مبتدإ محذوف أو مبتدءا لخبر محذوف ، بخلاف من يجعله

مبتدءا والجملة قبله خبرا ، وكذلك باب ضمير الشأن والقصة وكل ما يجرى هذا المجرى

ذكر الخاص مع العام

ومنها ذكرى الخاص مع العام ، ونكتته التنبيه على فضل الخاص والاهتمام بأمره لداع يقتضيه ، كقوله تعالى ﴿ من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين ﴾ وقوله ﴿ رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا ﴾ وقول بعض شعراء الحماسة :

وانَّ الذى بينى وبين بنى أبى ... وبين بنى عَمِّى لمختلف جِداًّ
إذا أكلوا لحمى وفرتُ لحومهم ... وإنْ هدَمُوا مجدى بنيتُ لهم مجدا
وإنْ ضيَّعوا غيبى حفظت غيوبهم ... وإن هم هوَوا غيِّى هوَيْتُ لهم رُشْدَا[١]

التكرير

ومنها التكرير ، ونكتته التأكيد ، كقوله تعالى ﴿ كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون ﴾ وقوله ﴿ وقال الذى آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ، ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار ﴾ ومنه أيضا تكرير قوله تعالى ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ فى سورة الرحمن ، وكذلك ماورد من نحوه فى سور أخرى من القرآن ، وقد ورد مثل هذا كثيرا فى الشعر كقول المُهلهِل :

على أنْ ليس عَدْلاً من كُلَيْبٍ ... إذا ما ضِيمَ جارُ المستجيرِ
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا ضاقتْ رَحيباتُ الصُّدور
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا برزتْ مُخبَّأَةُ الخدور

ومما يلحق بالتكرير أنه إذا طال الفصل من الكلام وكان أوله يفتقر الى تمام

---

(١) هذا هو محل الشاهد لان كل لحم يؤكل للانسان هو تضييم لغيبه وليس كل تضييم لغيبه اكلا للحمه

لايفهم إلا به ، فالأولى فى باب البلاغة أن يعاد لفظ الأول مرة ثانية ليكون مقارنا لتمام الفصل ، لاسيما فى إن وأخواتها إذا طال الفصل بين اسمها وخبرها ، كما فى قول بعض شعراء الحماسة :

أسجناً وقيداً واشتياقاً وغربةً ... وَنَأْىَ حبيبٍ إنَّ ذا لعظيمُ
وإنَّ امرءاً دامتْ مواثيق عهدهِ ... على مثل هذا إنّه لكريم

التكرير المعيب

فاذا لم يكن التكرير مفيداً لنكتة كان قبيحاً ، مثل قول أبى نُواس :

أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثا ... ويوماً له يومُ التَّرَحُّلِ خامسُ

ومراده بهذا أنهم أقاموا بها أربعة أيام ، وهو من العى الفاحش ، وكذلك قول أبى تمام :

قسم الزمانُ رُبوعها بين الصَّبا ... وقَبُولِها ودَبُورِها أثلاثا

فان الصبا هى القبول ولا معنى لعطفها عليها ، وهذا من التكرير فى المعنى دون اللفظ ، وهو يعاب فى النثر مطلقا ، وأما الشعر فقد قيل باغتفاره فى أعجاز الأبيات دون صدورها ، لأن الأعجاز مكان القافية والشاعر مضطر اليها ، فيحل له ماحرم على غيره ، كقول امرىء القيس :

وهل يَنْعَمَنْ إلا سعيدٌ مخلَّدٌ ... قليل الهموم لايبيت بأوجالِ

وقول الحُطيئة :

قالتْ أمامة لا تجزعْ فقلتُ لها ... إنَّ العزاء وإنَّ الصبر قد غُلبا
هلاَّ التمستِ لنا إن كنتِ صادقةً ... مالاً نعيش به فى الناس أو نَشَبا

فالبيت الأول معيب لأنه كرر العزاء والصبر إذ معناهما واحد ولم يردا قافية ، وأما البيت الثانى فليس بمعيب لأن التكرير فى النشب وهو قافية

الايغال

ومنها الايغال وهو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها ، كزيادة الحث على اتباع الرسل فى قوله تعالى « اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون » وكزيادة المبالغة فى قول الخنساء :

وإنَّ صخراً لتأتمُّ الهداةُ به كأنَّهُ علمٌ فى رأسه نارُ

وكتحقيق التشبيه فى قول امرىء القيس :

حملتُ رُدَيْنياً كأنَّ سنانَهُ سَنا لَهَبٍ لم يتصل بدُخان

فان قوله لم يتصل بدخان هو الذى يحقق التشبيه الذى قبله

التذييل

ومنها التذييل وهو تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها لتوكيده بها ، والمراد باشتمالها على معناها إفادتها بفحواها لما هو مقصود منها ، وبهذا يمتاز التذييل عن التكرير ، لأن دلالة الثانية على معنى الأولى فى التكرير بالمطابقة لا بالفحوى ، والتذييل ضربان : ضرب يجرى مجرى المثل لاستقلاله عما قبله وعدم توقفه عليه ، كقوله تعالى : « وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » ، وقول النابغة الذُّبيانىّ :

ولستَ بِمُستَبْقٍ أخاً لا تَلُمُّهُ على شَعَثٍ أىُّ الرجالِ المهذَّبُ

وضرب لا يجرى مجرى المثل لتوقفه على ما قبله ، كقول ربيعة بن مقروم :

فدعَوْا نَزالِ فكنتُ أوَّلَ نازلٍ وعَلام أركبه إذا لم أنزلِ

وقد اجتمع الضربان فى قوله تعالى ( وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون ، كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون ) فقوله ( أفإن مت فهم الخالدون ) من الضرب الثانى ، وقوله ( كل نفس ذائقة الموت ) من الضرب الأول

واذا وقع التذييل فى آخر الكلام صح أن يقال له إيغال أيضاً ، وإذا لم يقع فى آخر الكلام قيل له تذييل لا إيغال ، فهو أعم من الايغال من هذه الناحية ، كما أن الايغال أعم منه من جهة أنه قد يكون بغير الجملة ولغير نكتة التوكيد كما سبق فى الكلام عليه

التكميل

ومنها التكميل ويسمى الاحتراس أيضا ، وهو أن يؤتى فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه ، كقوله تعالى ( يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ) دفع بقوله ( أعزة على الكافرين ) ما قد يتوهم من أن ذلتهم عن ضعف لا عن تواضع ، وإنما قال : أذلة على المؤمنين فعداها بعلى دون اللام لأن المعنى أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم ، ومنه قول طرَفَة :

فسقى ديارَكَ غير مُفسدها  صَوبُ الربيع ودِيمةٌ تهمِى

وكقول كعب بن سعد الغَنَوِىّ :

حليمٌ اذا ما الحلم زَيَّنَ أهلَهُ  مع الحلم فى عين العدوِّ مَهيبُ

التتميم

ومنها التتميم وهو أن يؤتى فى كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة من مفعول ونحوه لنكتة كالمبالغة ونحوها ، فهو أعم من الايغال من جهة أنه لا يتقيد بآخر الكلام ، والايغال أعم منه من جهة أنه لا يتقيد بأن يكون فضلة ، ومن التتميم قوله تعالى ( ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ) اذا جعل الضمير فى قوله على حبه للطعام فيكون تتميما يقصد منه المبالغة فى مدحهم ، فاذا جعل الضمير لله تعالى لم يكن تتميما ، لأن معناه على هـذا يدخل فى أصل المراد من الكلام ، إذ الانفاق لا يمدح شرعا إلا اذا كان لله لا لرياء وسمعة ، ومنه أيضا قول زهير :

من يَلقَ يوماً على عِلّاتِهِ هَرِماً  يلقَ السماحةَ منه والنَّدى خُلُقا

الاعتراض

ومنها الاعتراض وهو أن يؤتى فى أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الاعراب لغرض من الأغراض ، واتصال الكلامين بأن يكون ثانيهما بيانا للاول أو تأكيداً أو بدلا أو معطوفا عليه ، والاعتراض على هذا التعريف يباين الايغال والتتميم ، ويشمل بعض صور التكميل والتذييل ؛ وله أغراض كثيرة كالتنزيه والتعظيم فى قوله تعالى ( ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ) وكالدعاء فى قول أبى الطيب :

وتحتقر الدُّنيا احتقارَ مجرِّبٍ يرى كلَّ ما فيها وحاشاكَ فانيا

والواو فى قوله وحاشاك تسمى واو الاعتراض ، وهي غير واو العطف وواو الحال وكالتنبيه فى قول الشاعر :

واعلم فَعِلْمُ المرء ينفعه أنْ سوف يأتى كلُّ ما قُدِرا

وهذه الفاء تسمى فاء الاعتراض أيضا

وكتخصيص أحد المذكورين بزياة التأكيد فى أمر علق بهما ، كقوله تعالى : ( ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىَّ المصير ) وكالمطابقة مع الاستعطاف فى قول أبي الطيب :

وخُفوقُ قلبٍ لو رأيتِ لهيبه يا جنّتى لرأيت فيه جَهنّما

وقد يأتى اعتراض فى اعتراض كقوله تعالى « فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ، إنه لقرآن كريم » فقوله لو تعلمون اعتراض فى اعتراض ، لأنه اعترض به بين الصفة والموصوف ، واعترض بالجملتين بين القسم والمقسم عليه

الاعتراض المعيب

فاذا لم يكن الاعتراض لغرض وفائدة فهو على ضربين : أولهما ضرب يكون دخوله فى الكلام كخروجه منه لايكتسب به حسناً ولا قبحا ، ومنه قول النابغة الذبيانىّ :

يقولُ رجالٌ يجهلونَ خليقتى لعلَّ زياداً لا أباكَ غافلُ

فقوله لا أبالك اعتراض لافائدة فيه ، ولا يفيد فى البيت حسناً ولا قبحا ، وقد وردت هذه اللفظة فى موضع آخر فكان للاعتراض بها فائدة حسنة ، كقول أبى تمام :

عتابَكِ عَنّى لا أبالكِ واقصدى

فانه لما كره عتابها اعترض بين الأمر والمعطوف عليه بهذه اللفظة على طريق الذم وثانيهما ضرب يؤثر نقصاً فى الكلام ، وهو الذى يحدث تعقيداً فيه كقول بعضهم

فقدْ والشكُّ بيّنَ لى عَناءٌ بوَشْكِ فراقهم صُرَدٌ يصيحُ

يريد فقد بين لى صرد يصيح بوشك فراقهم والشك عناء ، ففصل بين قد والفعل الداخلة عليه بقوله والشك وهو اعتراض ردىء لقوة اتصال قد بما تدخل عليه من الأفعال ، وإنما يفصل بينهما بالقسم ، كما تقول ( قد والله كان كذا ) ثم فصل بين المبتدإ وخبره بقوله بين لى ، كما فصل بين الفعل وفاعله بخبر المبتدإ وهو قوله عناء ، وبهذا كله جاء معنى البيت كأنه صورة مشوهة قد نقلت أعضاؤها بعضها الى مكان بعض ، وقد عد بعض مافى هذا البيت من الاعتراض على مذهب من لا يشترط فى الاعتراض أن يكون جملة أو أكثر من جملة

الايجاز والاطناب والنسيان

وقد يوصف الكلام بالايجاز والاطناب باعتبار كثرة حروفه أو قلتها بالنسبة الى كلام آخر مساوله فى أصل المعنى الذى يشتركان فى الدلالة عليه، فيقال للأكثر حروفا إنه مطنب وان كان فى نفسه من المساواة أو الايجاز بمعناهما السابق فى أول الباب ، ويقال للأقل حروفا إنه موجز وان كان في نفسه من المساواة أو الاطناب بمعناهما السابق أيضا ، ومن هذا قول أبى تمام :

يَصُدُّ عن الدُّنيا اذا عَنَّ سُودَدُ ... ولو برزَتْ فى زِىِّ عذراء ناهدِ

مع قول أبى سعيد المخزومى :

ولستُ بنظَّارٍ الى جانب الغنى ... اذا كانت العلياء فى جانب الفقر

فان أبا تمام قد جمع فى الشطر الأول من بيته ماجمعه المخزومى في بيته كله ومنه أيضا قول الشمَّاخ :

اذا ماراية رُفِعَتْ لمجد ... تلقَّاها عرَابَةُ باليمين

مع قول بشر بن أبى خازم :

إذا ما المكرماتُ رُفِعنَ يوماً ... وقَصَّرَ مبتغوها عن مَدَاها

وضاقتْ أذْرُعُ المثرِينَ عنها ... سما أوْسٌ اليها فاحتواها

ويقرب منه قوله تعالى « لايسأل عما يفعل وهم يسألون » مع قول السموءل :

وننكر إنْ شئنا على الناس قولهم ... ولا ينكرونَ القولَ حين نقولُ

وإنما كان هذا قريباً منه ولم يكن منه ، لأن الآية والبيت لم يتساويا تماما فى أصل المعنى ، لأن ما فى الآية يشمل كل فعل فيدخل فيه القول لأنه فعل أيضا ، أما البيت فخاص بالقول وحده

الاطناب فى الحروف

وقد يكون الاطناب بزيادة حرف على أصل المعنى لغرض من الأغراض ومن هذا زيادة أنْ بعد لما ، كما فى قوله تعالى « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل إنى أعلم من الله مالا تعلمون » فزيادة أن فيه للدلالة على أن الفعل بعدها لم يكن على الفور بل كان فيه تراخ وبطء ، وكذلك قوله ( فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد الا أن تكون جباراً فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ) زيد فيه أن بعد لما للدلالة على أنه لم يسارع الى قتل الثانى كما سارع الى قتل الأول

ومنه أيضا زيادة ما بعد اذا كما فى قوله تعالى « والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون » وقول بشار :

اذا ما غَضِبْنَا غضبةً مُضَرِيَّةً ... هتكنا حجابَ الشمس أو قطرت دَمَا

فزيادة ما فيهما للدلالة على قلة حدوث الفعل الذى بعدها ، فهى تشير فى الآية الى أن المؤمنين لا يغضبون الا قليلا ، وتشير فى البيت الى أن قومه لا يغضبون الا حين يوجب الحزم أن يغضبوا

وهكذا الشأن فى كل الأحرف التى يسميها النحويون أحرف زيادة ، ويغفلون عن دلالتها فى الكلام على هذه الدقائق والرموز ، لأنها ليست من شأنهم وإنما هى من شأن الباحثين فى علم المعاني ، لأنه هو الذى يعنى بأمثالها

وهذا آخر ما أردنا ذكره فى هذا العلم

# الخطاء والصواب

| الصفحة | السطر | الخطأ | الصواب |
|---|---|---|---|
| ٢٣ | ٢٤ | ضعف | أعان |
| ٤٣ | ١١ | تايـيـد | تأكيد |
| ٧٥ | ١٠ | عيل | غيل |
| ٧٩ | ٥ | ولو شاه | ولو شاء الله |
| ٨١ | ٢٢ | بعزة | بغرة |
| ٩٩ | ١٧ | إتيانها | إتيانهما |
| ١٠١ | ٩ | فى الحو | فى النحو |
| ١٠٨ | ٣ | المفعول | للمفعول |
| ١١٠ | ٦ | الجوارد | الحوارد |

